سومر

الجزء الأول والثاني - المجلد التاسع والثلاثون

١٩٨٣

نشأة وتطور القرية في العراق
ق . م ٦٠٠٠٠ ـ ٤٠٠٠

الدكتور عدنان مكي عبد الله

- مراحل نشأة وتطور القرية العراقية -

بين (٦٠٠٠٠-٤٠٠٠ ق . م)

١ . مقدمة :

ان مصادر هذا البحث مستقاة بالدرجة الاولى عن مصادر التنقيبات والاثار وتنقسم الى قسمين :-

١٠١ مرحلة ماقبل التاريخ :-

او قبل اختراع الكتابة حيث كانت المصادر هي تحليل ما عثر عليه من لقى اثرية وادوات وصور وفخار ومنحوتات اضافة الى ما يسمى « الصروح المشيدة » والتي لم تعتمد (في ادوارها الاولى خاصة) على مواد انشائية طويلة العمر .

٢٠١ المرحلة التاريخية :

وقد كانت الكتابة عاملاً مهماً في تدوين الكثير من تاريخ بلاد ما بين النهرين ومظاهر حضارته سواء كان من خلال الالواح الطينية المكتوبة او المسلات والجداريات اضافة « للصروح المشيدة » وتطور المواد الانشائية واستخدامها (مثل الطابوق المشوي . الحجر - المرمر .. الخ) وعليه يمكن اعتبار مصادر البحث لهذه المرحلة اكثر وضوحاً ودقة (غالباً دون الحاجة الى تحليل او استنتاج) عكس ما جرت الحالة عليه في المرحلة التي سبقت التاريخ.

من المعروف أن المستوطنات البشرية (قرى او مدن) كانت تشيد عبر التاريخ طبقة فوق اخرى وصلت في كثير من الحالات الى اكثر من (١٥) طبقة حتى وجد بعضها في عشرين طبقة . وما ينجم عن ذلك - بالطبع - الا توجد هذه المستوطنات (خاصة في الادوار المتأخرة) في حالة يصعب تميزها وتجميعها بوضوح . الا أن التطور الاجتماعي والاقتصادي والعمراني لهيكل وبنية هذه المستوطنات - عبر التاريخ - كان الخيط الذي يمكن (للباحث) متابعته للوصول الى استنتاجات معينة . تعززها هياكل وبنى مستوطنات (قرى اومدن) وجد اغلب مكوناتها في عصور مختلفة . كعينات اوامثلة للتدليل .

ان خطوط المواصلات - البرية والنهرية والبحرية - كانت معيارا آخر لمواقع هذه المستوطنات والتي وجد معظمها حول الانهار ومصادر المياه (نتيجة للطبيعة الزراعية الحيوانية لهذه المستوطنات) . فنرى عند تطورها وتقدمها - عبر التاريخ - ازدهرت معها مظاهر الحياة الاقتصادية والعمرانية والاجتماعية للمستوطنات البشرية (من خلال التبادل الثقافي والحضاري والاقتصادي الذي تنقله هذه الخطوط عبر محطاتها المختلفة) اضافة الى اختلاف معيار تحديد مواقع هذه المستوطنات .

لقد تم تقسيم مراحل البحث الى اربع مراحل مورفولوجية . تبدأ من الكهف الى القرية ثم استقرارها وتوسعها حتى تصل الى بداية نشوء المدن .

ان هذه الدراسة توضح تقدم فن وعلم التخطيط في بلاد مابين النهرين . (او العراق القديم كما يسميه البعض بالرغم من ان هذه التسمية « العراق » جاءت متأخرة عن تلك المراحل التاريخية) في مضمار اختيار الفضاءات المناسبة - كماً ونوعاً - اضافة الى التصميم العماري من خلال التعامل مع مواد انشائية محلية ثم تصنيعها واستخدامها بطرق تستحق الأعجاب وانشائها بطرق واساليب ونظم لم يخفى الغرب والشرق مشاعره بالاعجاب بها ثم تقليدها .

ان حضارات العالم القديم « تبقى تراثاً » للاجيال الصاعدة ..... وتبقى المستوطنات البشرية « المدن خاصة » هي المهد ومركز الاشعاع لذلك التراث الحضاري . لقد كان هذا السبب احد العوامل التي دفعتني - كمخطط - لابراز ذلك الدور المتميز (لاقدم حضارة في العالم) مستندا على مصادر بحث مختلفة - عراقية واجنبية ..... الا ان اهمها ماثر عن تنقيب الاثار العراقية . سواء في مجلة سومر او ذلك الذي نشره العلماء والمنقبون الاوائل من عراقيين واجانب اكدت اصالة وتقدم وتصدر تلك الحضارة .

ان عدم الكشف عن كثير من مواقع الاثار في بلاد مابين النهرين (خاصة مدينة اكد) .... او ترجمة عشرات الالوف من الالواح الطينية القديمة هي علامات الاستفهام التي نأمل ان توضح في مستقبل قريب ..... لتزيد الرؤيا وضوحا ..... والاراء دعما وحجة .

المصدر : المؤسسة العامة للآثار والتراث

خارطة رقم (١)

فترات تسبق دور العبيد مثل الخندق الدفاعي والسور الداخلي اللذين يحيطان بموقع تل الصوان (من دور حسونة – سامراء) [١٤] . كما يعتبر الجدار المحيط بموقع جمدت نصر نموذجاً لأقدم سور في السهل الرسوبي لمستوطنة بشرية وهي ظاهرة تدل على أن تحصين المدن وقلاعها والتنظيم العسكري (حيث كانت الأسوار مدعمة بأبراج) . قد بدأ في القرية وقبل نشوء المدن [٦]

لقد أشار « بهنام أبوالصوف » عن التنقيب في تل الصوان وعن موقع « تلول الثلاثات » قرب مدينة تلعفر » عن وجود خندق دفاعي من دور العبيد وأشار (توبلر Tobler) [١٥] الى وجود أبراج مراقبة عند مدخل موقع (تبة كورة) من طور العبيد الرابع [١٦] ، الأمر الذي يدعم هذا الرأي كانت هذه الأخيرة ضمن (مرحلة نشوء المدن) .

وهكذا نجد بأن هذه المستوطنات (التي كنا نسميها بالقرية) وفقاً لمفاهيم اجتماعية واقتصادية وعمرانية قد تحولت الى مدن . فقد بين (آدمز) بأنه في نهاية دور العبيد ظهرت مستوطنات مكثفة على هيئة (مدن صغيرة) و (قرى زراعية) و (اخرى أصغر حجماً) وأخذت عبر الأدوار المتعاقبة تنظم بعضها الى بعض لتشكل (مدناً أكبر) أوصلها في تطورها الى دويلات المدن [١٧] .

لابد لنا أن نشير بأن المعبد ، كنظام اجتماعي وسياسي واقتصادي قد كان محور هذا التحول ورائده .

لقد أكد ادمز كذلك من خلال الدراسات والمسوحات الأثرية التي قام بها في السهل الرسوبي الى أنه في نهاية (الألف الخامس ق . م) وبداية (الألف الرابع ق.م) انتشرت (قرى زراعية صغيرة) في الجزء الجنوبي من هذا السهل ، وأخذت تمتد شمالاً باتجاه (الوركاء) وأحتل بعض المستوطنات مركزاً رئيساً بين (مجموعة قرى صغيرة) تعتبر مناطق تموين بالنسبة للمركز الرئيسي (وهنا يقصد ببداية ظاهرة اقليم المدينة – Hinter Land) زراعية تحيط بالمستوطن الكبير . فعندما زاد الحجم السكاني اتجهت الحركة السكانية نحو الشمال وظهر عدد من المراكز الرئيسية المهمة مثل (الوركاء) و (نفّر) و (اوما) وغيرها التي اتسمت بالسعة وبكثافة المناطق الريفية المحاطة بها والتي كانت تحت اشراف المعابد المركزية [١٧] .

ويرى (آدمز) كذلك من خلال دراسته لمنطقة الوركاء ان أكثر من مائة مستوطنة صغيرة كانت تقع ضمن سيادة معبد الوركاء وذلك في منتصف الألف الرابع ق.م ، ومقابل هذا العدد الكبير من المستوطنات الصغيرة ظهرت الى جانب تطور بناء المعبد معابد كثيرة في هذه المستوطنة عندما أنفردت بالسيادة الدينية فكان تعدد المعابد خير وسيلة لدعم مركزها وأبراز مكانتها لاستقطاب (القرى) و (المدن الصغيرة) اليها . ونلاحظ بأن (آدمز) سمي الوركاء في هذه الفترة (٣٥٠٠ ق. م) (بالمدينة) وهي مؤشر لمرحلة مورفولوجية جديدة في طريق نشوء وتطور المدينة في العراق القديم [١٨] .

٤ . التقسيم المورفولوجي لنشوء وتطور القرية في العراق

واستنتاجاً لما اوردناه فقد تم تقسيم مراحل تكوين المستوطنات البشرية (بين الكهف – فالقرية ثم المدينة) الى أربع مراحل مورفولوجية رئيسية عبر الفترة الزمنية المحددة للدراسة (٦٠٠٠ر٠٠٠ – ٤٠٠٠ ق. م) .

٤.١ المرحلة المورفولوجية الأولى
(مرحلة ماقبل القرية (٦٠٠٠ر٠٠٠ – ٩٥٠٠ ق.م) .

وتمتد مع (العصر الحجري القديم Paleolithic) حتى نهاية العصر الحجري المتوسط . لقد اقتصرت هذه المرحلة على شمال العراق في كهوف شانيدرو هزارميرد وباب خال وسبيلك وبراك وكيوان وحجية [١٩] ، حيث كانت الأمطار مصدر سقي الزراعة البرية التي اقتات عليها في تلك المرحلة الى جانب الصيد اضافة الى حمايته من فيضان الأنهار والسيول التي كانت عاملاً هاماً آخر لبقاءه في تلك المنطقة (انسان نياندرتال (Neanderthal)

ان الدراسات تشير الا أن بحث الأنسان عن مصدر رزقه والظروف الطبيعية والمناخية جعلته يعيش في العراء [٢٠] لفترة طويلة ثم عاد الى الكهوف مرة أخرى كما وجد في موقع بردة بلكة [١٦] . لقد وجد أن الأنسان العاقل (Homo Sapien) هو الآخر سكن العراء لفترة طويلة كذلك . ان طبيعة تكوين ذلك الأنسان الحضاري والفكري (واعتماده الكلي على الطبيعة) هما أهم سببين حالا دون استقراره واستيطانه في مستوطنات ثابتة وأكثر تطوراً من الكهف [٦] ان اللقى الأثرية دلت على أن الأنسان عاش على شكل جماعات في الكهوف ومارس معتقدات معينة من خلال رسوم جدارية [٢١] وجدت في تلك الكهوف وأنه استخدم ادوات حجرية بدائية .

---

١٤ – EL-Wailly - F. and Abu-AL-Esoof
The Excavations at Tell-Essywan-Sumer-Vol. 21-1965

١٥ – الدكتور بهنام ابو الصوف
مجلة سومر – م ٢٤ – ١٩٦٨

١٦ – روبرت بريدوود
التنقيبات الأثرية في المنطقة الكردية بين ١٩٥٠–١٩٥١
ترجمة بشير فرنسيس – مجلة سومر – م ٧ – بغداد – ١٩٥١

١٧ – Robert Adams
Patterns of Urbanization in Early Southern Mesopotamia, in, MSSU.

١٨ – طه باقر
مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ج ١ – شركة التجارة والطباعة المحدودة بغداد – ١٩٥٥

١٩ – Braid Wood. R.
From cave to Village in Iraq Petroleum vol. I – No. 9. London – 1952.

٢٠ – تيومينيف
بلاد مابين النهرين القديمة = ترجمة سليم طه التكريتي – مجلة سومر مجلة ٣٩–١٩٧٣

٢١ – Soleki, R. Shanidear
The First Flower People – New York – 1971.

٢ . القرية وبلاد مابين النهرين :

عند البحث عن مراحل نشوء وتطور القرية العراقية لابد لنا ان نحدد هيكل هذه الدراسة والفترة الزمنية التي تناولتها كذلك لكي تتضح الرؤيا وتبلور الهدف .

ان المصطلحات المستخدمة في هذا البحث يجب ان ترسي هي الاخرى على شاطيء لكي لايختلط القديم بالحديث . فهنالك (شعب) عاش في منطقة الدراسة و (وطن) كان مهدا للحضارة كما ذكرنا اعلاه .

ولكثرة ماجاء من تسميات ارتأينا ان توضع النقاط على الحروف لتوضيح مصدر هذه التسميه .

٢ . ١ الأرض أو (وطن الدراسة)

لقد سمي العراق الحديث قديما بـ « بلاد مابين النهرين » او وادي الرافدين او العراق القديم او الميزوبتاميا « (Mesopotamia) يظهر ان الكتاب والمؤرخين الاغريق والرومان كانوا وراء هذه التسمية وكما اورد المؤرخ الاغريقي اوريانوس [١] تسمية هذه المنطقة ببلاد مابين النهرين او « ميزوبتاميا » . وربما تكون هذه التسمية توسيعاً لاصطلاح سومري اكدي (بريت – Birît) [٢] . (ناري – Nari) . والذي كان يطلق على منطقة كانت تقع ضمن بعض انعطافات نهر الفرات في مكان ماشمال غرب بابل . ان فلنكشتاين [٣] يعود بهذه التسمية الى غزو الاسكندر المقدوني لهذه البلاد حيث سمى تلك المنطقة الواقعة بين نهري دجلة والفرات بأنها مابين النهرين .

وعليه ان تسمية منطقة الدراسة (ببلاد مابين النهرين) تصلح لان تكون التسمية المناسبة لخلود نهري دجلة والفرات منذ ذلك الحين حتى عصرنا هذا ضمن هذه الحدود الجغرافية التي ستتناولها الدراسة اوبلاد الرافدين . الا ان ماورد في المصادر التي اعتمد عليها هذا البحث سيبقى كما هو .

٢ . ٢ السكان

عند الحديث عن السكان والارض لابد لنا ان نحدد الفترة الزمنية التي تناولتها الدراسة فهي تقع بين وجود أول انسان (نياندرتال – Nearderthal) [٤] في كهف شانيدر شمال بلاد الرافدين (حوالي ٦٠٠٠٠ ق.م) [٤] ولغاية (٤٠٠٠ ق.م) . نرى في تلك الفترة الزمنية قد وجدت في بلاد ما بين النهرين اقوام من عدة اصول وبتسميات مختلفة : –

٢ . ٢ . ١ الأقوام الذين سكنوا العراق منذ (٦٠٠٠٠ سنة)

(Nearderthal) [٥]

ابتدأ من كهف شانيدر وتختلف مصادر أصل هذه الاقوام . الا ان علماء الاجناس يعودون بهيكل وجمجمة هذا الانسان الى موطنه الاصلي قرب دسلدوف في المانيا الغربية حيث هاجر بعضهم خلال العصر الجليدي الرابع ودخل العراق عن طريق بلاد الاناضول [٦] واستقر في الجزء الشمالي من بلاد ما بين النهرين . ثم انتشروا في ارجائها فيما بعد . ان أقواماً أخرى مثلوا الجماعات التي سكنت المستوطنات في العصور الحجرية والمعدنية انتشرت (مثل أهل حسونة وحلف والعبيد ... الخ) تتفاعل وتختلط مع أقوام اخرى مهاجرة مثل السومريين والساميين والذين سوف يرد البحث عنهم فيما بعد .

٢ . ٢ . ٢ . السومريون

وقد اختلف اصل هذه الاقوام المهاجرة وتأريخ دخولهم بلاد مابين النهرين اوحتى الجهة الجغرافية التي دخلوا منها هذه البلاد . الا ان هنالك اجماع بأنهم مهاجرون لم يقدموا من الجزيرة العربية . لقد جاء بأنهم قدموا الى شمال بلاد الرافدين (بين ٤٠٠٠ – ٣٠٠٠ ق . م) ودخلوها من الشمال والشرق وانتشروا الى الجنوب .

الا ان سيتون لويد اكد بوجود حضارة في « جنوب بلاد مابين النهرين » وفي منطقة الاهوار قبل (٥٠٠٠ ق . م) من خلال ختم اسطواني وقد وصف مساكنهم هو « وليونارد وولي . بأنها تشبه مساكن الاهوار في جنوب العراق الحديث من ناحية المواد الانشائية والتصميم العماري [٥]

٢ . ٢ . ٣ . الساميون

كان اول من استخدم هذا المصطلح Samites [١٩] (اللغات السامية) هو المستشرق الألماني « شلوتزر عام ٧٨١ م » للدلالة على الأقوام التي استقرت في بلاد سوريا وفلسطين والعراق منذ أقدم الأزمنة وتكلمت لغات متشابهة يعود اصلها الى مصدر مشترك واحد . فقد أقتبس « شلوتزر » هذا المصطلح من العهد القديم (سفر التكوين – الأصحاح العاشر : ٢١–٢٣ من انساب سام أبن نوح) وشاع استخدامه على الأكديين والبابليين والأشوريين والكنعانيين والعبرانيين والارامين والاموريين [٧]

---

١ – الدكتور سامي سعيد الاحمد
العراق في كتابات اليونان والرومان – مجلة سومر – م٢٦ – ١٩٧٠

٢ – الدكتورة بهيجة خليل اسماعيل
مسلة حمورابي – وزارة الثقافة والاعلام / المؤسسة العامة للآثار دار الحرية للطباعة – ١٩٨٠ – بغداد

٣ – ليو اوبنهايم
بلاد ما بين النهرين – ترجمة سعدي فيضي عبد الرزاق – دار الرشيد للنشر ١٩٨١ – بغداد

٤ – ترفليان English Social History
ج–م–١ – لندن ١٩٤٦

٥ – سيتون لويد
اثار بلاد الرافدين – ترجمة الدكتور سامي سعيد الاحمد – دار الرشيد للنشر–١٩٨٠ – بغداد

٦ – لنتون رالف
شجرة الحضارة – ترجمة الدكتور احمد فخري – ج١ – مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٥

٧ – الدكتور هاري ساكس
عظمة بابل (موجز حضارة دجلة والفرات القديمة) ترجمة الدكتور عامر سليمان
مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر – الموصل – ١٩٧٩

وهوكما يرى « ساكس » لايستند الى حقائق تاريخية او براهين مؤكدة بل أنها تسمية غير دقيقة لاتخلومن أهداف غيرعلمية . ان الأستاذ طه باقر [٨] أكد بأن بلاد الرافدين لم تكن تشمل السومريين (الذين لم يعرف أصلهم) فقط ولوأنهم سكان البلاد الأصليين الا أن هنالك هجرة أقوام جاءوا من الجزيرة العربية وسكنوا في بلاد بابل وعاشوا جنباً الى جنب مع السومريين وتفاعلوا معهم قبل أن يستطيعوا الأستيلاء على دفة الحكم ، وأن الأكديين الذين عاشوا مع السومريين يمثلون احدى فصائل المهاجرين من الجزيرة العربية الى وادي الرافدين والذين سموا بالساميين (ويبين بأن هذا المصطلح لم يستند الى أساس تاريخي مقبول) .

لقد برز من هذه الأقوام ملوك مثل (سرجون الأكدي وميسلم) وآخرون طغت جهودهم الحضارية على السومريين حتى أصبحوا سادة هذه البلاد . وتدل الدلائل المكتوبة بأنهم كانوا يتمتعون بالقوة والنفوذ خاصة ضمن حدود دويلة « كيش» ، وحتى ان الأقسام الوسطى من وادي الرافدين ابتداء من مدينة (نيبور– نفر) في الجنوب حتى خط (هيت – سامراء) شمالاً اصبحت تسمى ببلاد « أكد » تأكيداً الى انتمائها الى أقدم قبائل الجزيرة التي استوطنت في بلاد الرافدين وكانت لغتهم أكدية الا أن كتاباتهم سومرية [٨] . وقد أكد (انطوان مورت كارت) في كتابه « تاريخ الشرق الادنى القديم » [٩] وجود الساميين في هذه البلاد وتكلم عن (ميسلم السامي – ٢٦٠٠ ق . م) بانه كان يمثل نهاية ادوار ماقبل التاريخ وبداية العصور التاريخية لقد ذكر (الايرخت كوته) [١٠] بان هنالك دولة كبيرة من الساميين وجدت خلال عصر فجر السلالات الثاني على وجه التأكيد ويرى (د . نيسن) بان الساميين تمكنوا من السيطرة على كل منطقة بابل وتوحيدها تحت زعامة كيش .

ان المهاجرين العرب (الساميين) القادمين من الجزيرة العربية بسبب الجفاف الذي حل بارضهم كانوا ذوي خبرة بالزراعة وشؤون الري ونقلوا معهم حضارتهم الى عالمهم الجديد في وادي الرافدين [١١] وقد كانت « كيش) منطلقا لاول عملية بأسم (التطعيم بالعنصر السامي) قوية للشعب السومري (٢٨٠٠ ق . م) [٩] في حين يذكر (د . سوسة) [١٢] بان الساميين وجدوا في جنوب العراق منذ (٥٠٠٠ ق . م) وجاءوا عن طريق سوريا حيث مروا في شمال العراق ثم جنوبه وتركزوا في « كيش » وهكذا نرى بان الجدل التاريخي حول قدم استيطان السومريين والساميين في جنوب « بلاد مابين النهرين » مازال قائما . ولوان هنالك اجماع نسبي في تواجد الجنسين بفترات زمنية محددة وان السيادة والسيطرة في البداية كانت للسومريين الا ان الساميين سيطروا فيما بعد حيث انهوا دور السومريين في هذه البلاد . يذكر « هنري فرانكفورت » [١٣] بان الانسان في هذه البلاد زرع السهل الرسوبي الواقع بين رأس الخليج العربي من الجنوب و« هيت وسامراء » من الشمال قبل ان يستقر كمجاميع فيه . حيث وجد الانسان في هذه المنطقة قبل طور « العبيد » أو « اريدو » وكانوا قوما يصطادون السمك ويربون الحيوانات كالماشية ويعيشون في بيئة وصفها بغابة من القصب ويحيون حياة برمائية وتجرى المواصلات في الأنهار بواسطة زوارق قيرية ضيقة ويسكنون في اكواخ من القصب اوالحصير (الالف الرابع ق . م) .

لقد وجد في هذه البلاد كذلك مجاميع من الغجر (النوير) ومن البدو الذين كانوا يرعون الماشية (غنم وماعز وخنزير) في (سبار) في العهد البابلي القديم « ونفر» الواقعة في وسط منطقة بابل [٢] . خارطة رقم (١) .

٣ . القرية والمدينة وبلاد مابين النهرين

قبل الخديث عن مراحل نشاة القرى والمستوطنات في بلاد مابين النهرين لابد لنا أن نبين الفرق بين مفهوم المدينة والقرية في ذلك الحين حيث أن (بنية المستوطنات) طيلة فترة الدراسة مرت بالمراحل التالية :–

أ– الكهوف . بداية الأستيطان الطبيعي .

ب– الأستيطان المؤقت . بين الكهوف وقرية زاوي جمي (٩٥٠٠ ق. م)

جـ– القرى الطينية التي امتدت بين زاوي جمي وجرمو (٩٥٠٠–٦٦٠٠)

د– وضوح بنية القرية واستقرارها وتوسعها في بداية العصر الحجري الحديث وحتى مرحلة متأخرة من العصر الحجري المعدني .

ان تطور الاستيطان في (مرحلة ماقبل القرية) حيث كان الكهف هو المأوى الذي يؤمن له الخصوصية والأمان ضمن نطاق العيش الجماعي الذي سمي في ادواره الأولى (بالعصر البدائي) لحين سيادة (الأنسان العاقل Homo Sapien) في حوالي الـ (٤٠٠٠٠ ق. م) حيث بدت مظاهر تحول نسبي أستمر حتى بداية (مرحلة نشوء القرية) في شمال « بلاد مابين النهرين » في ملفعات وزاوي جمي وجرمو حيث ظهر في آخر ادوارها بداية القرية الزراعية الطينية في هذه البلاد (والتي كانت الخاصية المميزة للمستوطنات البشرية) . الا أنها خلال فترة تطورها في (مرحلة تطور القرية واتساعها وانتشارها) كانت هذه المستوطنات في مرحلة تحول وتطور ملموس نرى من خلاله مظاهر الأتجاه نحو (بنية) جديدة (للمستوطنات) والتي سميناها (بالمدن) .

لقد ظهرت اشكال من التحصينات الدفاعية لبعض القرى الزراعية من

٨– طه باقر – الدكتور فاضل عبد الواحد – الدكتور عامر سليمان
تاريخ العراق القديم – ج ١ – مطبعة الجامعة – ١٩٨٠ – بغداد

٩– الدكتور مورتكارت
تاريخ الشرق الادنى القديم

١٠– الدكتور احمد سوسة
الري والحضارة في بلاد وادي الرافدين – ج ١ – مطبعة الاديب ١٩٦٩ – بغداد .
ان هذه الحقيقة فندها عدد من الاساتذة الاثاريين والجغرافيين

١١– الدكتور احمد سوسة
حضارة العرب ومراحل تطورها عبر العصور– دار الرشيد للنشر ١٩٧٩ – بغداد .

١٢– الدكتور احمد سوسة
حضارة وادي الرافدين بين الساميين والسومريين – دار الرشيد للنشر ١٩٨٠ – بغداد

١٣– هنري فرانكفورت
فجر الحضارة في الشرق الادنى القديم – ترجمة ميخائيل خوري منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت – ١٩٦٥
د . تقي الدباغ : – العراق في عصور ماقبل التاريخ – بغداد ١٩٨٣ بحث (غير منشور) يعتمد على آخر نتائج قراءات اجهزة قياس C/14

لقد ذكر جايلد هايستنك [٢٢] بأن الكهوف كانت مقرا لطقوس دينية في مراحل متأخرة من هذه المرحلة لقد تطبع الأنسان في هذه المرحلة على الشكل (الهندسي الدائري) الذي كان يمثل الطبيعة . (القمر – الشمس اضافة الى الكهف (السقف – المدخل) وغيرها من الظواهر الفيسيولوجية التي تطبع وأعتاد على رؤيتها .

ان تلك الظروف الصعبة والتخلف التكنولوجي او الفكري لم يصاحبه أية مظاهر تخطيطية متميزة [٢٢] في هذه المرحلة . أن التطور الذي شهده الأنسان العاقل في فترات متأخرة من هذه المرحلة جعلته ينتبه لذاته ثم لعلاقته بالعالم المحيط به ليفكر بايجاد مصادر عيش أكثر ضمانا وادوات متقدمة لتوصله الى تأمين قوته ثم الشروع في بداية مراحل الأستيطان المستقر .

٤ – ٢ المرحلة المورفولوجية الثانية

(بداية نشوء القرية وتركيز استيطانها (٩٥٠٠ر٩ – ٦٠٠ر٦ ق . م)

وتمتد بين نهاية العصر الحجري الوسيط (Mesolithic) والعصر الحجري الحديث (Neolithic) . لقد بدا الأنسان في هذه المرحلة البقاء أطول خارج الكهف في مستوطنات مؤقتة من الأشجار والأخشاب والمواد الطبيعية التي حوله ثم بدأ يطور استقراره في (ملفعات) (وزاوي جمي – ٩٥٠٠–٩٠٠٠ ق . م) قرب منطقة كهف شاندر حيث اختلف الرأي أي منهما كانت أقدم مستوطنة في العراق فقد ذكر (بريدوود) [٢٣] وطه [١٨] باقربان زاوي جمي هي الاولي (كمستوطنة مقاربة للقرية) فقد وجد فيها اثار مخطط (الكوخ مدور) بقطر ٣ م بني بأحجار خشنة سمك ١٥ سم فوق الأرض وبذلك فهي اول (قرية) من نوعها في العالم بدأ الأنسان فيها يجرب تدجين الحيوانات والنبات [١٨] . الا أنه بين (٩٥٠٠–٦٦٠٠ ق . م) وجدت اول قرية زراعية طينية من نوعها شمال العراق (جرمو) ١١ كم شرق جمجمال [٢٤] مساحتها (١٦٫٠٠٠–١٢٫٠٠٠ م٢) عثر فيها على (٣٠–٤٠) مسكن طيني باشكال مدورة ومستطيلة . (شكل (١) يسكنها (١٥٠–٢٠٠) نسمة [٨] صنعت جدران وأرضية مساكنها من الطين على أساس من الحجر فوق الأرض . عثر كذلك على مناجل حراثة وقلائد زينة للنساء وتماثيل من الطين تمثل (نساء بدينات اوحبالى مبالغ في حجم اثدائهن) فسره المنقبون بأنه الهة الخصب (الألهة الأم Mother Goddes) وهي تكريس وبلورة للمعتقدات والعبادة وبروز (المعبد) كثقل واضح فيها [١٨] اضافة لوجود القبور تحت المساكن مع دفن مايعتقدون بحاجته في اليوم الاخر في نفس القبور . ثم تدجين الحبوب والحيوان لاول مرة في العالم . فقد دجن القمح والشعير والعدس ومن الحيوانات دجن الغنم والماعز والبقر والخنزير . كما وجدت من خلال اللقى الأثرية (مغازل) تدل على ممارسته الغزل والنسيج . وهي مظاهر حضرية متقدمة بالنسبة للمرحلة التي سبقتها (وبداية ظهور القرية الزراعية) مع مقومات اجتماعية واقتصادية بدائية اضافة الى تطور عماري وتخطيطي ملموس يعلن بداية الأستقرار والتجمع السكاني من خلال علاقة انتاجية غير محددة المعالم قد تكون بين (الملكية الفردية او الملكية الجماعية) وسكنت قرية جرمو لفترة [٢٥] طويلة وتمثل نقطة تحول بين (العصور الحجرية الحديثة والعصور الحجرية المعدنية) وسمي عصرها بعصر قبل الفخار .

لقد أكد (بريدوود) ان تحضر الأنسان في القسم الشمالي من العراق القديم واستيطانه واستقراره ومزاولته لصناعة الحرف اليدوية سبق انسان الشرق الأدنى القديم [١١٠] . ان وجود بعض الأدوات الحجرية واللقى الأثرية التي تتكون من مواد اوليه غير موجودة في منطقة استيطان الأنسان في تلك القرية تدل على ممارسة الأنسان التجارة وتبادل السلع بداية حركة ونظام مواصلات برية بين تلك القرية والعالم المحيط بها (ارمينية وبلاد الأناضول) [١٨] لقد ذكر الأستاذ فؤاد سفر بانه وجدت في (قرية زاوي جمي) ابنية دائرية المسقط سقفها (قبة) يرتبط في احدى جوانبه بين فضاء القبة وخارج هذه البناية بفتحة . ظنه بانه بداية تكوين الـ (Tholoi) وقد ايده بذلك سيتون لويد الا ان التنقيبات ايدت وجود بناية (مسكن) ذات مسقط دائري وبفضاء واحد غير مقطع (كما اشرنا اعلاه) لعله وجد ذلك في مكان اخر من هذه القرية . وبذلك يكون أقدم بناية من نوعها في العراق والعالم .

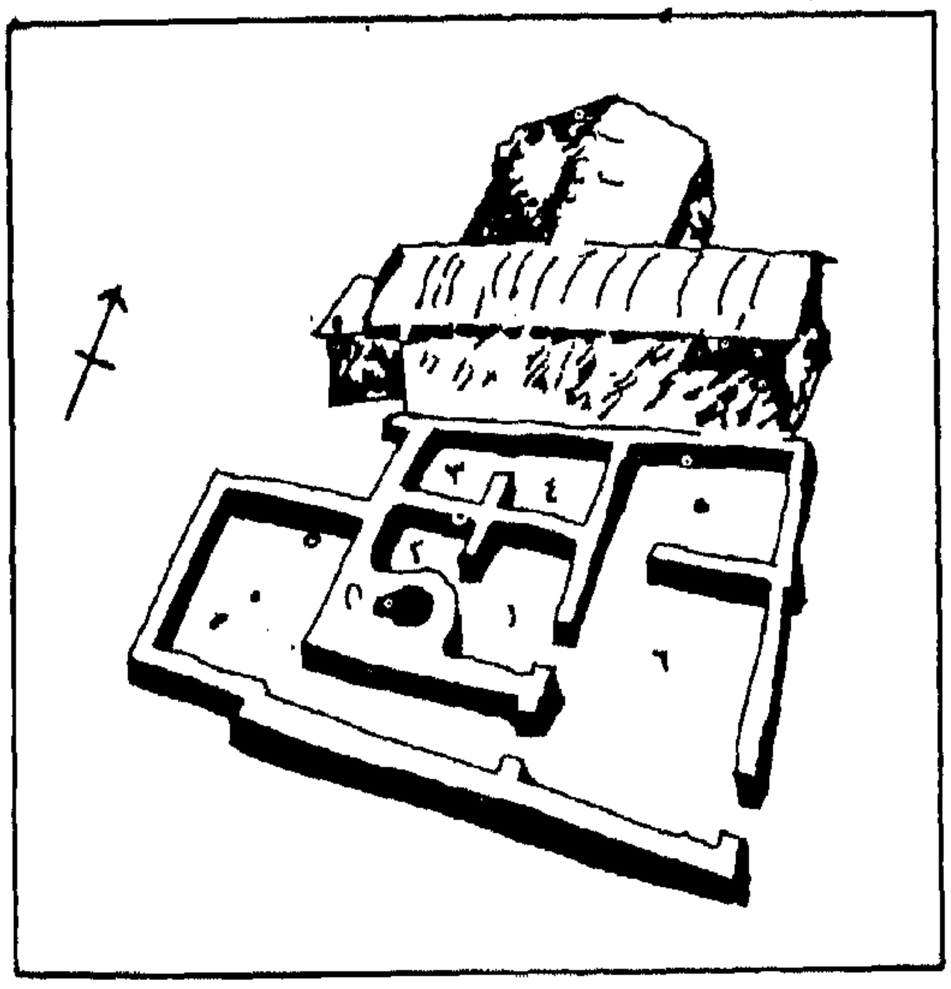

شكل (١) بيت شبه منتظم طه جرمو المصدر : جاكيت وولي)

٤ – ٣ المرحلة المورفولوجية الثالثة

تطور القرية ووضوح بنيتها الداخلية (٦٦٠٠٠ – ٥٠٠٠ ق . م)

٢٢ – جابلد كوردن/ماذا حدث في التاريخ – ترجمة الدكتور جورج حداد
الشركة العربية للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة ١٩٤٢
د . تقي الدباغ . نفس المصدر السابق ص – (٢٦ – ٢٧)

٢٣ – Braid Wood. R.
Pre- Historic Men 1967.

٢٤ – الدكتور هرس
سجلات معبد سن . في خفاجة تاتوب – ج ك س ٩ عدد ٢ . عدد ٣

٢٥ – الدكتور سامي سعيد الأحمد
المدخل الى تاريخ العالم القديم / القسم الأول / الجزء الأول
مطبعة الجامعة / ١٩٧٨ – بغداد

٢٦ – Lloyd. S. and Safar
En. 6NES. Vol. 4 - no. 4 - 1945.

٢٧ – جورج كونتينو
الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور – ترجمة وتعليق سليم طه التكريتي

شكل (٢)

احد بيوت الدلاجي المستديرة في تل ، يارم تبه ، الواقع في سهل سنجار بغرب من تلعفر

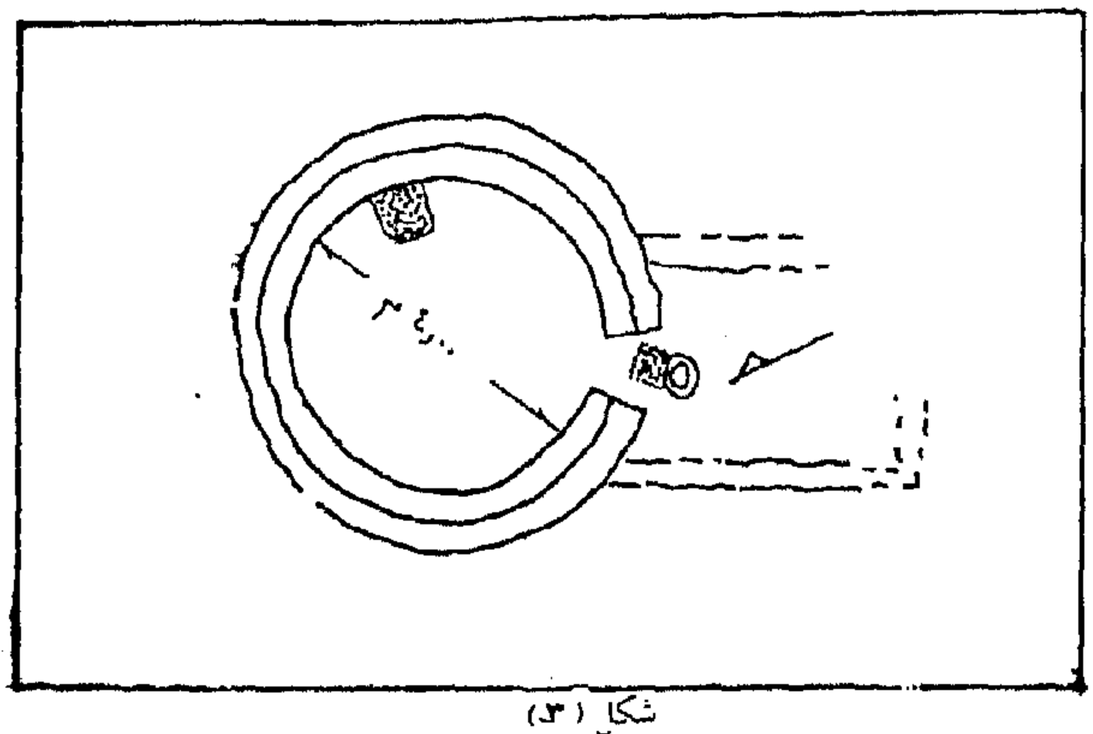

شكل (٣)

مخطط ارضي للبيت المستدير في تل (يارم تبه) بالغرب من تلعفر

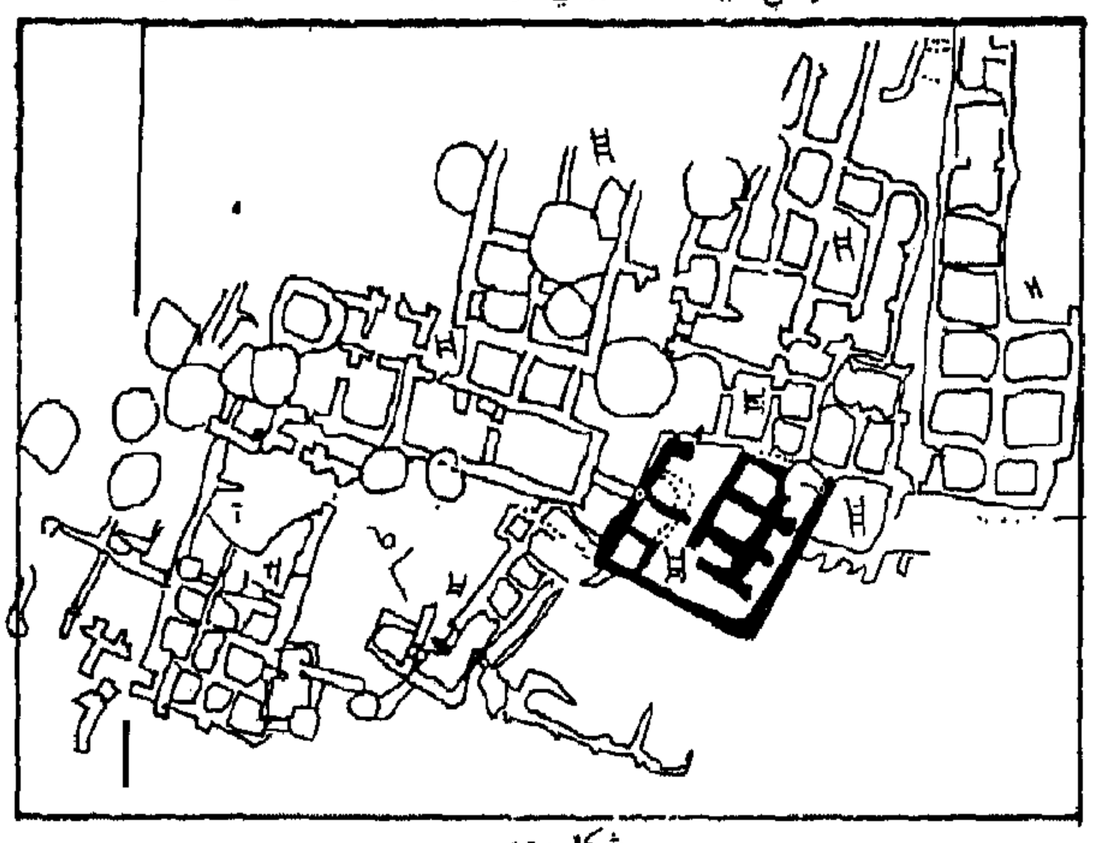

شكل (٥)

بيوت شبه منتظمة ط ٥ تل ١ / يارم تبه (المصدر : ميربرت)

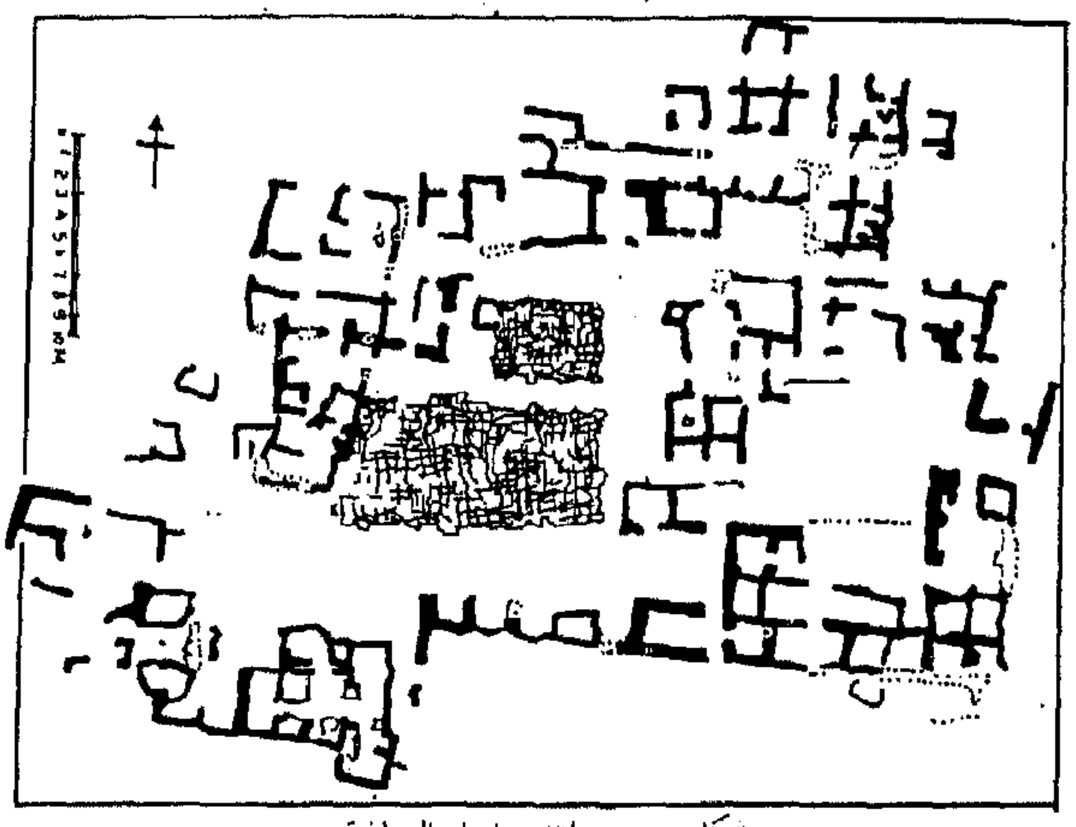

شكل (٤) ط٣ تل اد الدباغية

٥٧٠٠ ق . م بيوت شبه منتظمة ومخازن متكونة من عدة غرف (المصدر : كيرك برايد)

وتمتد هذه المرحلة بين العصر الحجري الحديث والعصر الحجري المعدني وتشمل المستوطنات في : دور حسونه وسامراء وتل الصوان .

يعتبر هذا الدور مرحلة انتقالية . في بدايته ملامح تطور وانتشار مواقع القرى . ثم بداية تكوين عوامل ساعدت على نشوء المدن في ادوار لاحقة وهي :

أ - تركز الشخصية الاجتماعية المتمثلة بتطور العبادة والمعبد والذي حقق نظاماً اجتماعياً يمثل مرحلة متقدمة عن المرحلة المورفولوجية السابقة[٢٧] .

ب- فعاليات اقتصادية جمعت بين الصناعة والزراعة وتربية الحيوان والتجارة التي اتضحت اكثر ثم اكثر في الفترات المتأخرة من هذا الدور .

جـ - تطور عمراني شمل المسكن والمعبد وتخطيط المستوطنة[٢٨] والمواد الاولية المستخدمة في الانشاء والاتجاه نحو نظام مواصلات سهل عملية نقل الاشخاص والتجارة بين المستوطنات في بلاد وادي الرافدين من جهة وبين الخارج من جهة اخرى .

ولقد عثر في دور (حسونة) على مستوطن مكون من مخيمات مع بعض المواقد من الفخار التي لاتزال تحتوي رماداً في موقع قريب من (جرمو)[٢٩] . كما وجدت في هذه المستوطنة وفي الطبقات (٥.٣) بيوت صغيرة مبنية من الطين مجمعة حول ساحات (مزارع) مع مخازن حبوب وادوات حجرية[٤] .

وفي (يارم تبة) جنوب غرب مدينة (تلعفر)(شكل (٢) و(٣) وجدت بيوت صغيرة تحوي (١٠٠ غرفة) في ثلاثة عشر طبقة وكانت مساحات البيوت التي تحوي على (التنور) مع مخزن للحبوب (١٤×٦م) تقع حول أزقة ضيقة وقد عثر في هذه المستوطنة على (ثولوى Tholoi)[٣٠] (٥) والذي يتكون من كتلتين متلاصقتين الاولى مقطعها دائري وسقفها (مقبب) تتصل بأخرى متوازية المستطيلات تنفذ منها بفتحة ذات سقف مقوس من جانب السقف المقبب وبفتحة اخرى من الجانب الاخر المؤدي الى الخارج ويظن علماء الآثار بأن هذا المبنى هو

برهان عبد التكريتي – دار الرشيد للنشر – ١٩٧٩ – بغداد

٢٨ – فؤاد سفر حفريات مديرية الآثار العامة في اربد و– مجلة سومر ١٩٤٧

لابد من الاشارة هنا بان العراقيين لم يعرفوا المعادن في الادوار الاولى لحسونة وسامراء .

٢٩ – سيتون لويد (Seton Lioyd) فؤاد سفر

ج ٤ – ١٩٤٥

Journal of Near Eastern Studies

٣٠ – Kirkbride

D. Umm-AL. Dabaghigah, Atrading outpost – Iraq Vol. p. 1 – 2.

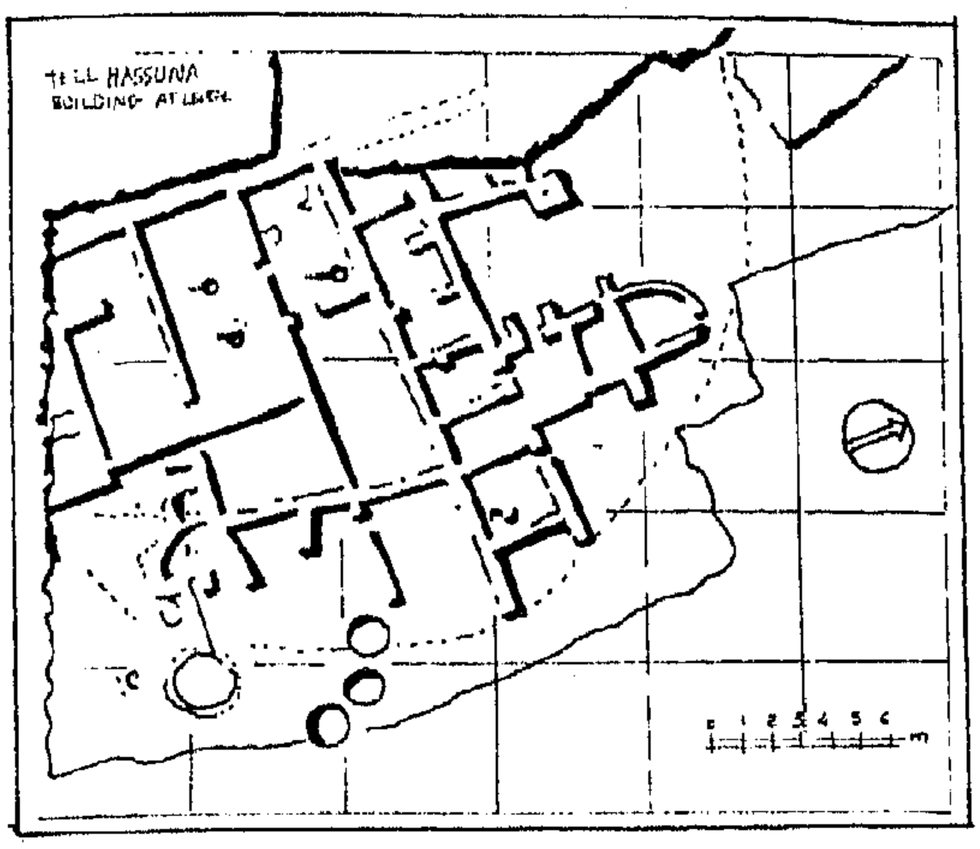

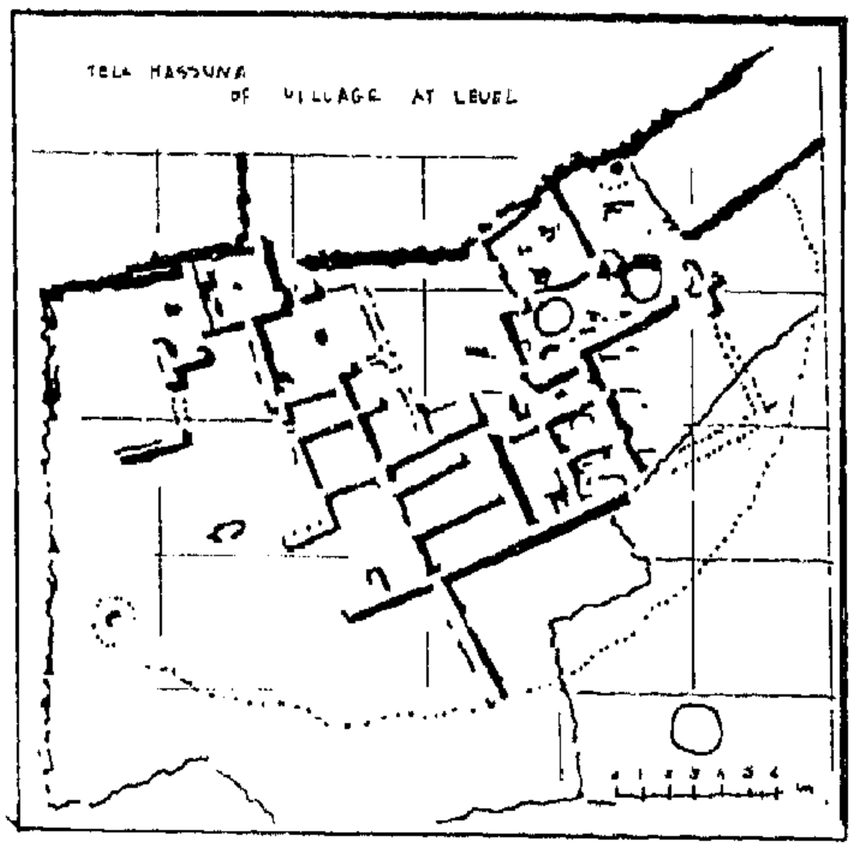

شكل ٦ أ – ط٤ ح تل حسونة بيوت شبه منتظمة ب – ط٥ / ح / تل حسونة / بيوت شبه منتظمة

المصدر : سلوين لويد وفؤاد (سفر)

ب

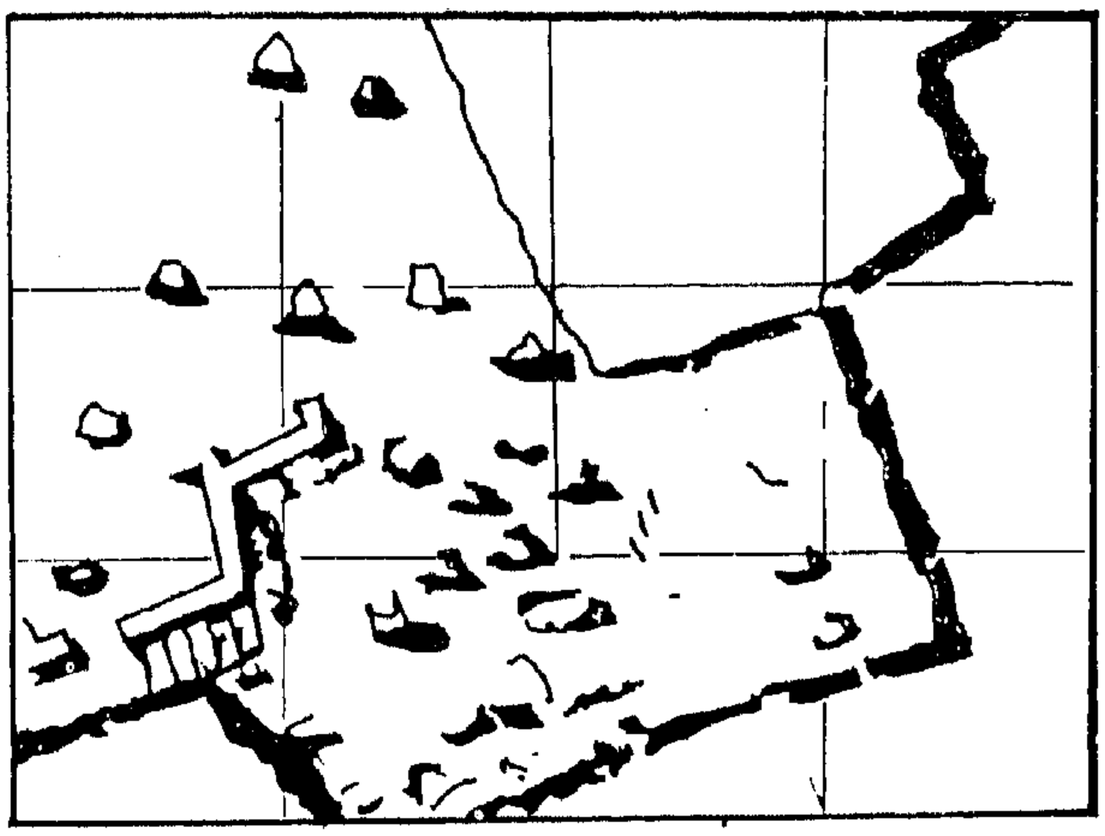

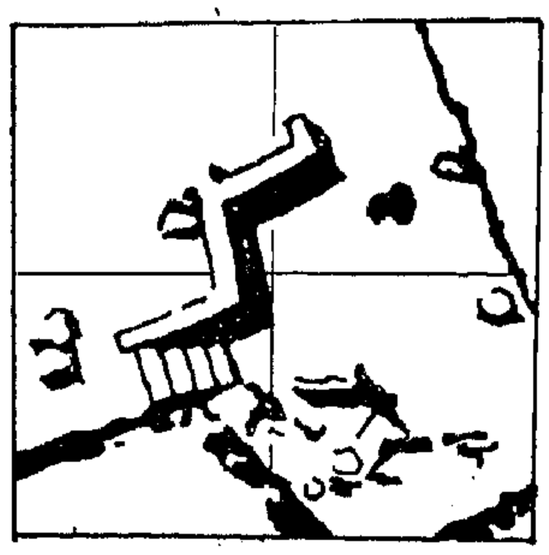

ب

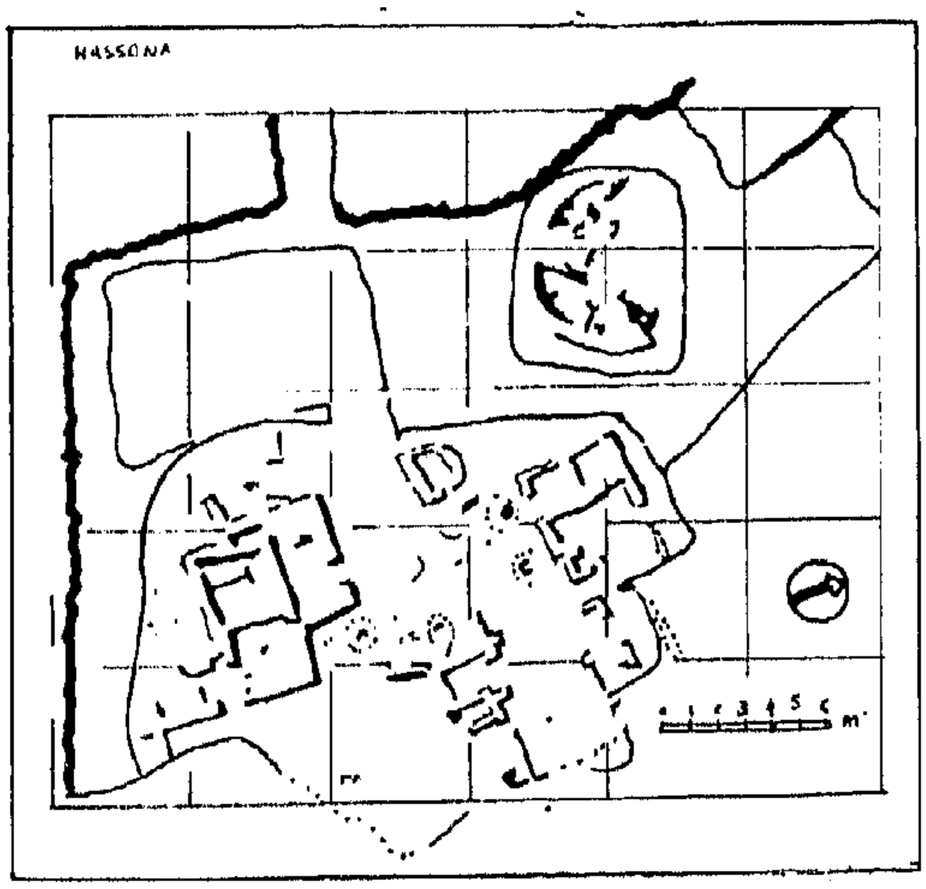

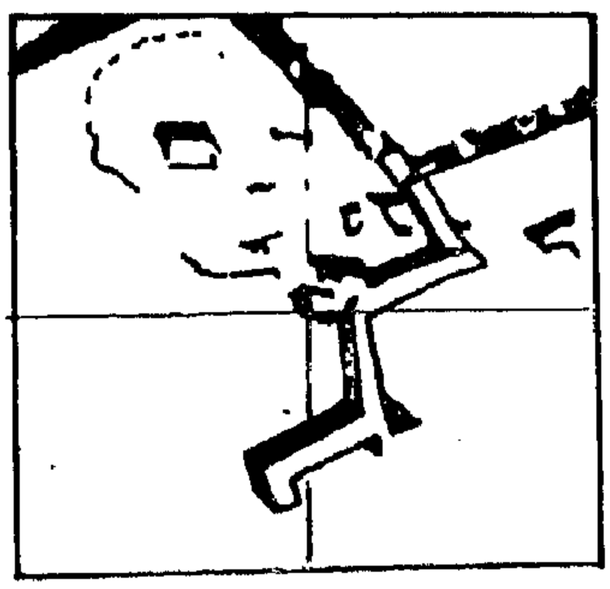

شكل (٧)

أ – ط١١ / ح١ / تل حسونة / ثلاثة مخيمات

ب – ط١ ب و١ ج / ح١ / تل حسونة بيوت غير منتظمة . وبيت مدور

(المصدر : سلوين لويد وفؤاد سفر)

د

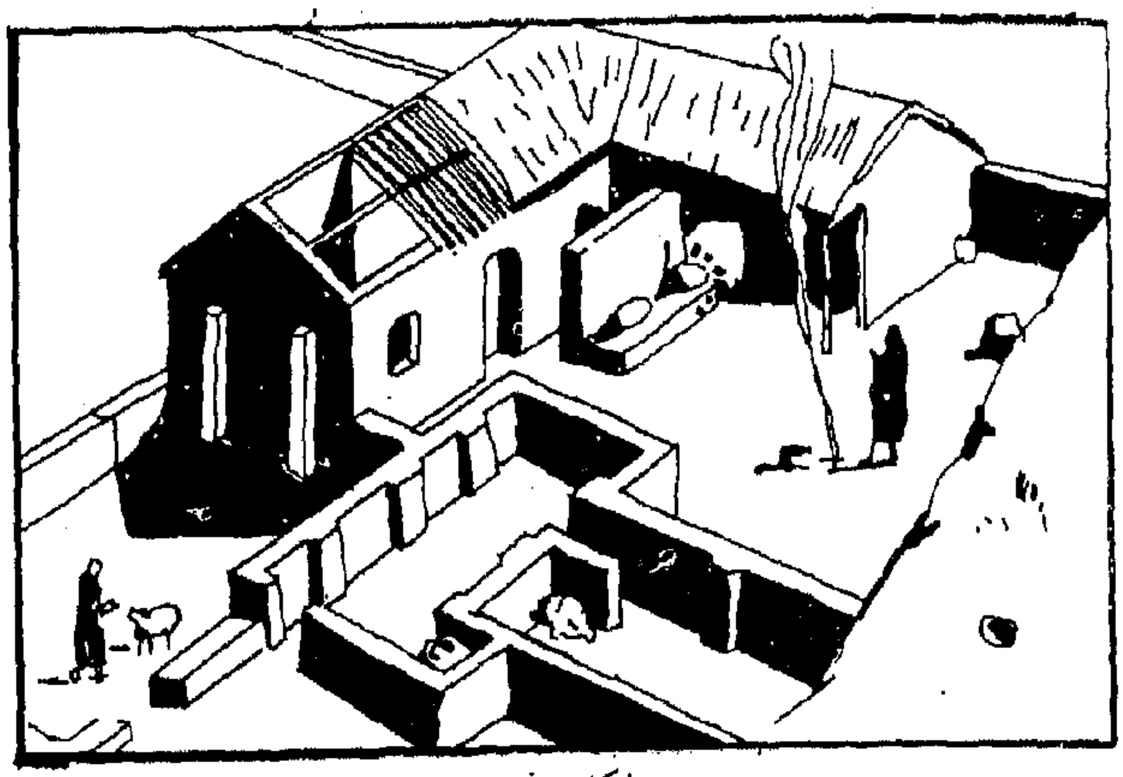

شكل (٨)
صورة مجسمة لدار عثر على اسسها في (تل حسونة) الطبقة الرابعة الواقعة في ناحية الشورة على بعد ٢٢ ميل جنوب الموصل . يوجع الى العصر الحجري المعدني القديم (٥٦٠٠–٥٠٠٠ ق.م .)

أما معبد اومركز اداري اومسكن جماعي اومقبرة. وهويشابه بناية (الثولوس Tholos) اليونانية التي وجدت في (مايسيني) واستخدمت للسكن ولاغراض دينية . كما وجد في (ام الدباغية) (شكل – ٤ –) وهي أقدم مستوطنة مبنية في هذا الدور التي تقع بين حسونة وسامراء على بنايات تماثل تلك التي وجدت في يارم تبة كما صممت المساكن لتكون صالحة للسكن والتجارة والخزن وقد وجدت على جدران المساكن صورة للانغر وقد رافق وجود هذه المستوطنة التي بنيت بيوتها من الجص والطوف رافق العصر الحجري الحديث الفخاري (٦٠٠٠–٥٧٠٠ ق. م) في طبقاتها الأولى وقد كانت غرف المسكن صغيرة (٢×٥ر١ م) مع مداخل مقوسة ومواقد طبخ (تنور) ومخازن حبوب وتقع مساكن هذه المستوطنة على ازقة ضيقة ملتوية [٥] .

ان تطور الفكر التخطيطي والتصميمي بدأ متميزاً في هذا الدور (شكل ٤و٥) حيث توصل الانسان من خلاله الى فصل فعاليات حياته اليومية المختلفة النوم والطبخ والخزن كما فصل فعاليات الأنسان في نفس المسكن عن تلك التي تخص الحيوان وتوصل كذلك الى وضع (التنور) [٣١] والموقد في الساحة الخارجية للبيت بعد ان كان في غرفة خاصة [٣٢] ، وذلك لحمايته من التقلبات الجوية كالأمطار والثلوج والرياح عندما لم يكن باستطاعته اتخاذ القرار المناسب بهذا الشأن قبل هذا الدور . وقد وضحت عملية وضع التنور في ساحة البيت بصورة اوضح في (تل الصوان) و(دور الوركاء) [٣٣]

ان عملية خزن المحاصيل الزراعية وضحت بصورة متميزة من خلال مباني ذات حجوم مختلفة استخدمت لهذا الغرض في (يارم تبة) و(تل أم الدباغية) و(تل حسونة) كما وجدت جرار فخارية كبيرة مدفونة تحت

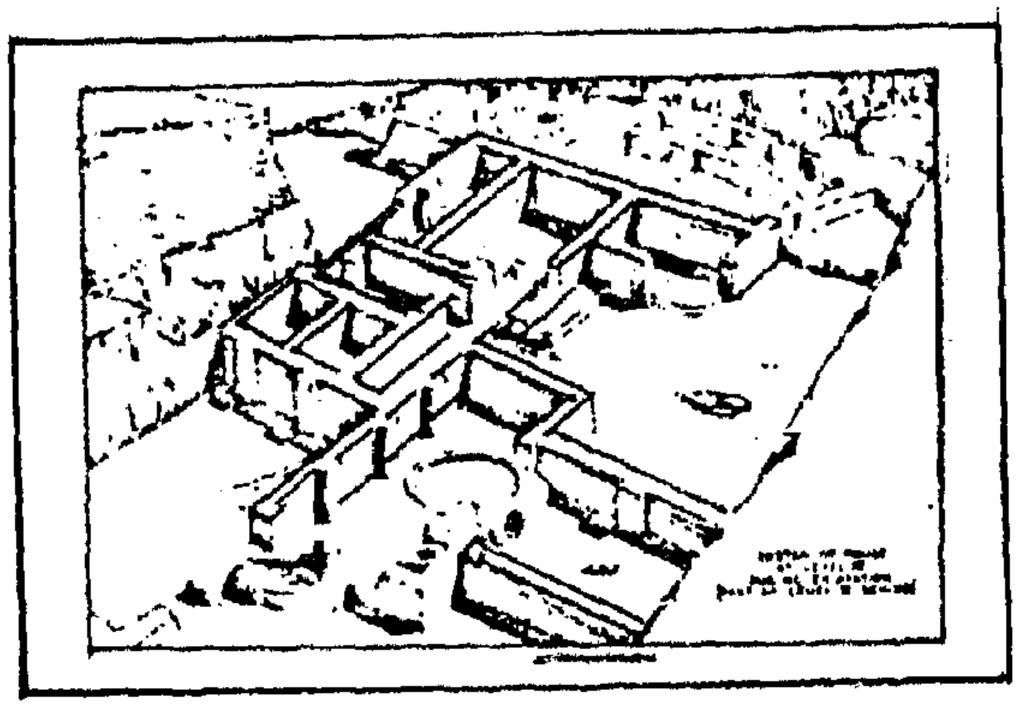

شكل (٩) ط٤ / تل حسونة / اعادة بناء مقترح لاحد البيوت مع مخططه مثلما اكتشف .
المصدر : (سلوين لويد وفؤاد سفر)

الأرض بالقرب من بيوت الأنسان لغرض خزن الحبوب الفائضة عن الأستهلاك [٣٠] .

ان الاثار المكتشفة في مواقع (حسونة) و(الاربجية) و(الوركاء) تؤكد بأن كان للعراقيين القدماء علاقات تجارية مع بعض البلدان الأجنبية من خلال الات مصنوعة من ادوات واحجار غريبة عن ارض العراق لابد . وأنها قد جاءت عن طريق تجارة خارجية ، كما وجدت بعض المشاهد المصورة على المنحوتات التي تبين بأن النجارين كانوا يستخدمون اخشاباً مستوردة وأن العراقيين القدماء منذ العصر الحجري المعدني كانوا يعرفون صناعة الغزل والنسيج وورد ذكر مشاغل الحياكة والمناسجين ومشاغل الخياطة في نصوص من سلالة اور الثالثة [٣٤]

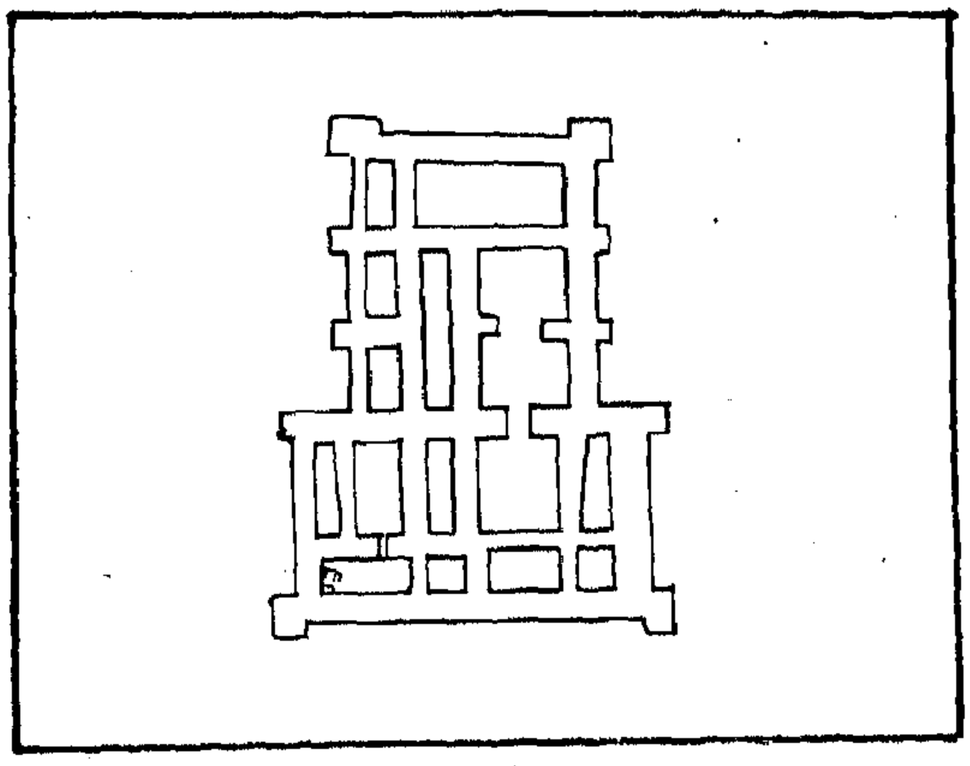

شكل (١٠) : معبد ط٤/ تل الصوان يشبه الحرف اللاتيني ٥٣٥٠ ق.م
(المصدر : خالد الاعظمي)

٣١– فؤاد سفر : مجلة سومر ١٩٤٥

٣٢– اونغير Unger بابل القديمة ١٩٣١

٣٣– فؤاد سفر : حفريات اريدو سومر – مجلد ١٩٤٨/٤

٣٤– الدكتور فاضل عبد الواحد – الدكتور عامر سليمان
عادات وتقاليد الشعوب القديمة ١٩٧٩ – دار الكتب للطباعة والنشر جامعة الموصل – الموصل

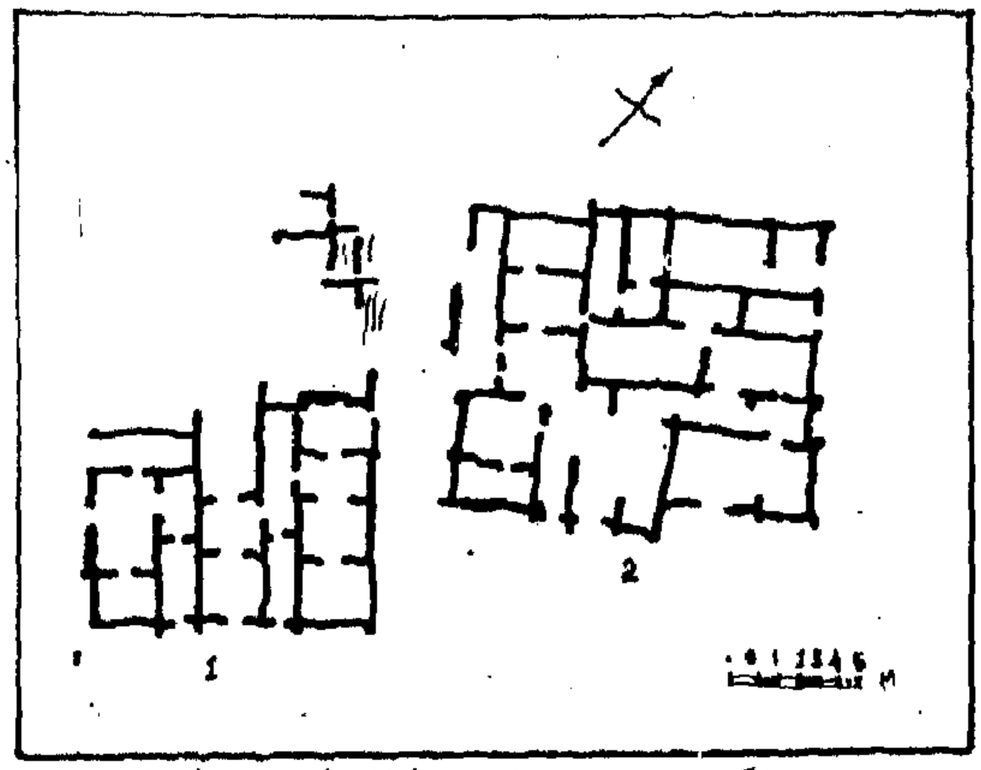

شكل (١١) : بيتان شبه منتظمان ط١ تل الصوان
(المصدر : فيصل الوائلي وابو الصوف)

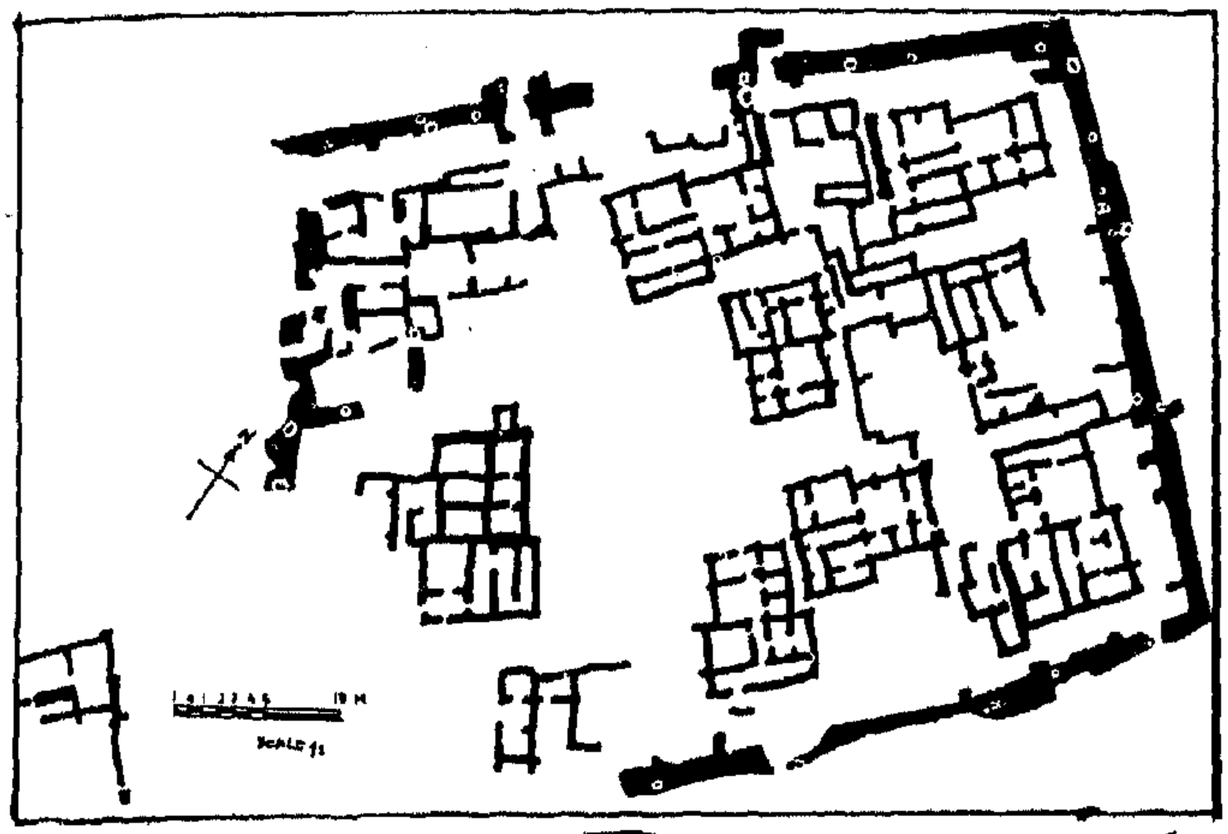

شكل (١٢) بيوت منتظمة تشبه الحرف اللاتيني "H" . ط١٣ تل الصوان (المصدر : ياسين)

لقد عثر في (دور حسونة) على ١٦ طبقة أثرية (اي ١٦ دور بنائي) من بيوت السكن تبدأ من العصر الحجري الحديث حتى تشمل معظم ادوار العصر الحجري المعدني . فقد عثر في هذا الدور وفي موقع (تل الصوان) قرب سامراء (١١٠ كم جنوب سامراء) وهو تل صغير (٢٢٠×١١٠م٢) ا عثر على عدة قبور وهياكل عظمية ومنحوتات حجرية صغيرة سبقت ظهور النحت في وادي الرافدين بما لايقل عن ٢٠٠٠ الى ٣٠٠٠ عام كما عثر في الموقع ايضا على بيوت سكنية مشيدة من (الطابوق واللبن) ورجح ان يكون احدها (معبدا) وهو بناء كبير ويكون بذلك اقدم بناية معبدة في تاريخ العراق القديم [٣٣] . لقد كانت هذه البناية على شكل (T) تحتوي على ١٤ غرفة وتمثال [٣٤] (شكل ١٠و١١) مرمري يعتقد بانه (الالهة الام) (Mother Goddess) وقد تكون مخازن حبوب وفي الطبقة الثالثة وجد (سور) خارج المنطقة المسكونة [٣٥] (مع خندق منيع) وهو اقدم نظام دفاعي تم العثور [٣٥] عليه في بلاد مابين النهرين (٥٣٥٠ ق . م) كما وجدت كذلك تحت ارضيات المساكن في مستوطنة (تل الصوان) (١٠٠ قبر) مع حبوب طعام وادوات مرمرية وتماثيل تؤيد وجود (اقتصاد مختلط) يجمع بين الزراعة التي يسندها الري البدائي والرعي والصيد [٥] . لقد كانت مساكن هذه المستوطنة (٣٥٠×١٥٠م) تحتوي على ١٢ غرفة مع جدران مشيدة من اللبن استخدم فيها القالب الخشبي (٨٠×٣٠×٨ سم) .

ان تطور هياكل المستوطنات البشرية في (دور حسونة) و(سامراء) خاصة في (تبة كورة) و (تل الصوان) (شكل رقم ١٢) تدل على بداية اتجاه نحو نسق عمراني ذو مفاهيم تخطيطية اكثر تقدماً خاصة فيما يخص التصميم الداخلي لها [٣٦] . (ان ابنية القباب المدورة) (Tholoi) التي سبق ذكرها اعلاه والتي وجدت في شمال العراق في مواقع مختلفة منذ العصر الحجري الوسيط حيث ذكر (الاستاذ فؤاد سفر) و(سيتون لويد) بان هذه الابنية وجدت في مستوطنة (تل حسونة) كذلك . حيث وجدت بعض هذه الابنية مقسمة بقواطع عمودية من جدران الطين وقد دلت التنقيبات الاثرية بان هذه الفضاءات قد استخدمت بفعاليات مختلفة مثل السكن والخزن والطبخ وقد شيدت هذه الدور من الحجر والطين وقد كان هذا التطور العمراني الفريد بداية اتجاه تخطيطي ينقل الانسان القديم من الابنية الدائرية الى الابنية المتوازية المستطيلات اضافة الى استخدامه لعمارة (القبة) و (القوس) لاول مرة في التاريخ [٣٦]

لقد ذكر (الدكتور فاضل عبد الواحد والدكتور عامر سليمان) بان مصادر الطاقة للطبخ والتدفئة والانارة في العراق القديم ابتدأت بقطع الاخشاب والاشجار بالدرجة الاولى ومرت باستخدام المسارج (التي تتألف من أناء صغير على شكل حذاء وفي احدى نهايته ثقب يخرج منه فتيل) وكانت المسرجة ترمز الى اله النار (نسكو) وقد استخدم زيت السمسم وزيت الزيتون لهذا الغرض وقد كان (التنور) في البداية والمواقد البدائية قائم على حرق الاخشاب وفضلات الحيوان [٣٤] حتى اوضح (جورج كونتينو) بان العراقيين القدماء استخدموا النفط الخام كمصدر للطاقة والذي كان يطلق عليه (زيت الحجر) ولعل استخدام العراقيين القدماء لمادة القير في اعمال البناء الذي استطاع المنقبون العثور عليها واستخدام المشاعل في المواكب الدينية واثناء المعارك العسكرية كما صورتها لنابعض المنحوتات تدعم لنا فكرة (كونتينو) هذه .

لم يعرف العراقيون القدماء استعمال المعادن والتعدين في دور سامراء فكانت الادوات من الحجارة . منها الحجر البركاني الاسود (الاوبزيدي Obzidian) [١٨] الذي يعتقد انه استورد من خارج البلاد عن طريق معاملات تجارية تبادل سلع مع بلدان مجاورة (كما اسلفنا سابقا) .

٤ . ٤ المرحلة المورفولوجية الرابعة
توسع القرية وأزدهارها وانتشارها (٥٠٠٠ – ٤٠٠٠ ق . م)

ويواكب هذا الدور العصر الحجري المعدني وقد قسم ولاسيما في (الاريجية) الى طورين يحتل كل منها عدة طبقات وهي :

١.٤.٤ . طور حلف .

١.١.٤.٤ طور حلف القديم : ويشمل الطبقات ماقبل الطبقة العاشرة .

---

٣٥ Langdon – S., Pictoghraphic inscriptions from Jamdat Nasr? Oxford Editions of Cuneform texts, vol. 7 Oxford University Press.

٣٦– Tobler. A. Excavation at Tepe Gawra-vol. 2 philadelphia 1935.

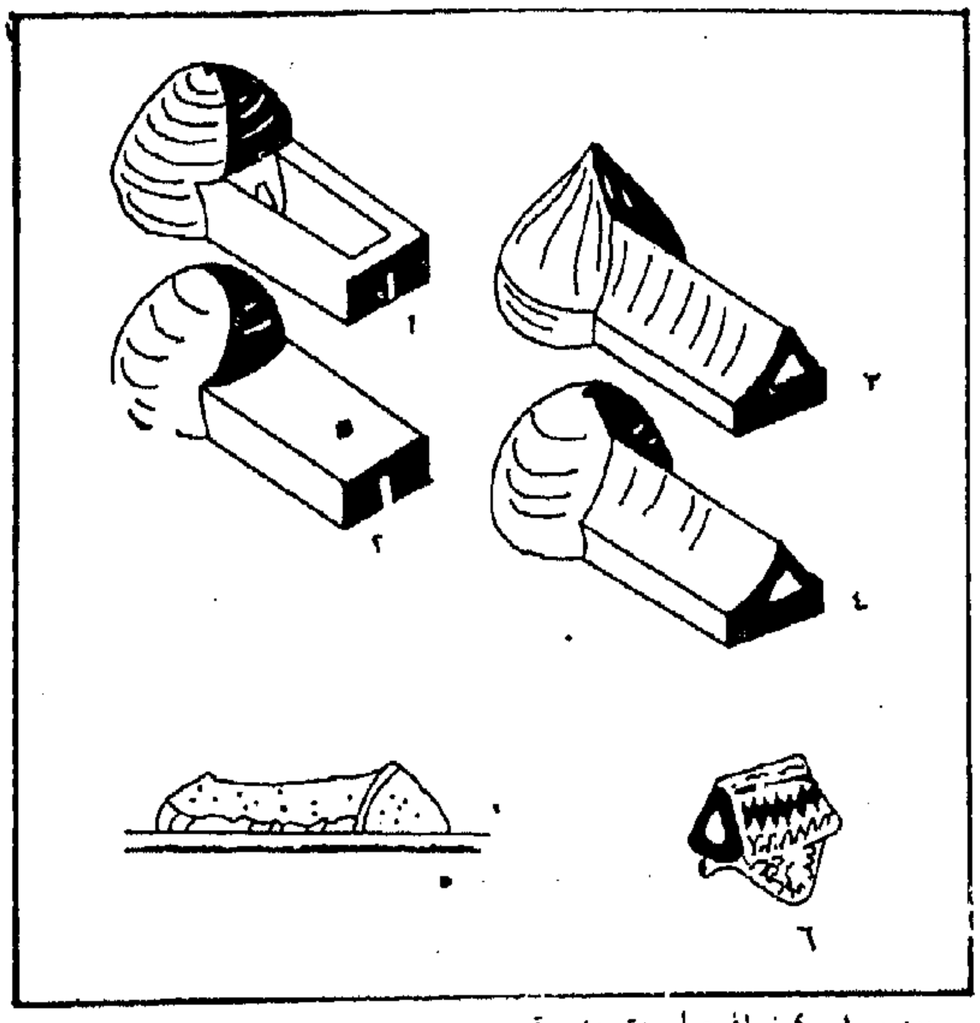

شكل (١٣) ١ – ٤ نماذج لبيوت مدورة
٥ – مخازن حبوب حديث في الاربجية (٤٩٠٠ ق . م)
٦ – نموذج لسقف جملون (المصدر : ملا وان)

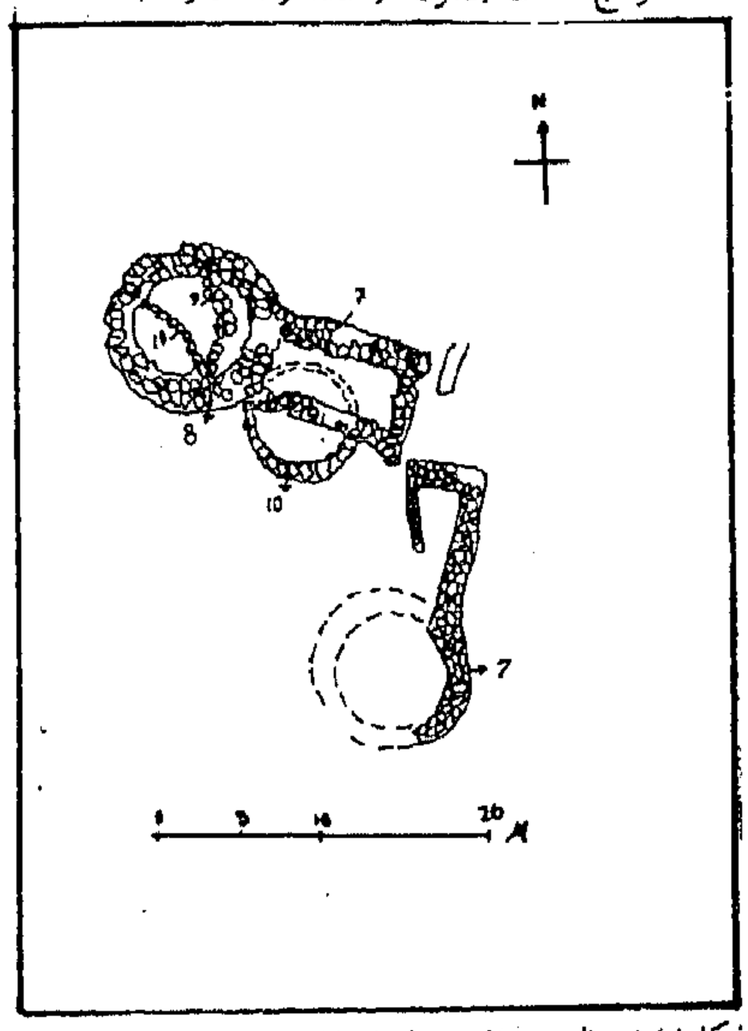

شكل(١٤) البيوت المدورة / تل الاربجية (المصدر : ملاوان)

٤ . ٤ . ١ . ٢طور حلف الوسيط وتمثله الطبقات (١٠ – ٧) .

٤ . ٤ . ١ . ٣ طور حلف المتاخر وتمثله الطبقة السادسة .

ويتضح من هذا الدور توجه اكثر (لفكرة المدينة) من خلال زيادة الاستقرار في المستوطنات والسيطرة على عناصر الانتاج والتوصل الى شبكة مواصلات برية ونهرية اكثر تقدما وتطور الفنون والعمارة وبداية التعدين ولا سيما النحاس والرصاص [١٨] والتي بدت واضحة في زخارف ذات اشكال متناسقة جميلة وقوامها الاشكال الهندسية كالمثلثات والمربعات والمعينات والخطوط المتصالية واشكال أخرى . تؤيد كلها اضطلاع الانسان في هذا الدور بالاشكال والابعاد الهندسية المختلفة . ومما يزيد الاعجاب بتطور الفنون تلك الاواني الفخارية التي صنعت باليد حيث لم يستعمل دولاب الخزف بعد . ان القرية التي اكتشفت بقاياها في (الاربجية) – بالقرب من الموصل – تشير الى تقدم القرى وتطورها واتساع فعالياتها وتنظيمها وتطور أساليب البناء واصبح البعض فيها (ولا سيما الاربجية نفسها) اقرب ما تكون الى (مدن صغيرة) تبنى منها المساكن المتسعة والمنظمة والشوارع المبلطة بالحجارة [٨] الطبيعية . مع ان الطين بقي المادة الاساسية في بناء البيوت الا انه ظهر كذلك استعمال اللبن المنتظم بشكل خاص في قرى (منطقة الخابور)

ان ابنية الـ (Tholoi) التي تطرقنا اليها في المراحل المورفولوجية السابقة تكرست في هذا الدور ووجد عشرة أبنية منها في (تل الاربجية) في (طور حلف الوسيط) وبلغ قطر مسقطها عند القباب المستديرة (٧ر٠ – ٥ر٥ م) ثم زادت فيما بعد الى (٥ر١٦ – ١٩ م) ويدخل الى البعض منها حجرة متوازية المستطيلات . لقد رجح ان يكون الكبير منها نوعا من المعابد او المزارات الدينية كما فسرها البعض بانها طراز خاص من دور السكن والكبيرة منها بمثابة النادي او (المضيف) للمجتمع الفلاحي .

لقد عثر في هذا الدور على نوع من الاختام أقدم من الاختام المنبسطة (Stamp seals) التي سبقت في الظهور والاستعمال الاختام الاسطوانية (Cylinder Seals) وهي الاختام التي ظهرت في الاطوار الاخيرة من (دور الوركاء) والتي سياتي الحديث عنها فيما بعد .

ان المظاهر التخطيطية والفنية والعمرانية اعلاه تبين تطور في المفاهيم التخطيطية . كما يؤكد في هذا الدور العلاقات التجارية (التي استمرت من الادوار التي سبقتها بموجب الاثار المكتشفة في موقع (الاربجية) مع بعض البلدان الاجنبية [٣٤]

ولابد من الاشارة بان الاستيطان في جنوب العراق قد بدأت طلائعه في هذا الدور[٧] .

ان بعض المصادر تؤيد بان العربة ذات العجلات قد استخدمت في هذا الدور من خلال صورة لعربة وجدت على أناء من هذا الدور[٧] والذي يؤيد بأن المواصلات البرية قد تطورت في هذا الدور اضافة الى تطور المواصلات النهرية بوصول سكانه الى المناطق النهرية في جنوب العراق واقترابهم من الخليج العربي .

ان تطور العبادة والمعابد هنا سواء من خلال الابنية المدووة [٣٧] (Tholoi). او من اكتشاف دمى تمثل (الالهة – الام) المصنوعة بهيئة امرأة تضع يديها على ثديها المبالغ في كبرهما . ان تأسيس المعبد بمفهومه الديني الكامل ظهر لاول مرة في الشرق الادني في هذا الدور متطورا من مراحل دينية وابنية معابد ابتدأت من الكهف ثم في (الاربجية) ومعابد (تبة كورة) في محافظة نينوى [٣٨] .

٣٧– Al-Adami, K. A.
1968 – Sumer vol. 44.

٣٨– شاه محمد علي الصيواني
اور بين الماضي والحاضر – دار الحرية للطباعة والنشر ١٩٧٦

لقد عثر (ملاوان) على اكواخ صغيرة مبنية من الطين في (الاربجية) (شكل ١٣ و١٤) مع مقبرة تحتوي على اكثر من ٣٠ قبر خارج القرية ووجد فأس من النحاس واختام مسطحة تعود الى (٤٨٠٠ ق . م) كما وجد (Speiser) معابد وقبور غنية بالحلى الذهبية واستعمال النحاس في مستوطنة (تبة كورة) .

ان تطور المواصلات وزيادة الانتاج الزراعي والصناعي واستخدام المعادن والعجلة وتطور التجارة في (دور حلف) ساعد الكتل البشرية المتزايدة بالاستفادة من العمارة والفن المتطور لوضع قواعد رصينة لبداية نشوء المدن القديمة في هذه البلاد والتي تطورت في الدور الثاني من هذه المرحلة لتبين استكمال ملامح هيكل طلائع المدن او بدايتها كما سنبينه ادناه :

٤ - ٢ - ٢ دور العبيد ويضم :

٤٠٢٠١ - العبيد الاول ويسمى طور اريدو .

٤٠٢٠٢ - العبيد الثاني ويسمى طور فخار حاج محمد القريب من الوركاء ورأس العمية القريب من كيش .

وقد سمي بهذا الاسم نسبة الى (تل العبيد) القريب من (اور) .

لقد وجد الانسان في الجنوب قبل (طور العبيد) او (اريدو) وقد عاش ذلك الانسان واستقر حول الانهار وقرب الاهوار في السهل الرسوبي بين رأس الخليج العربي (وهيت) و (سامراء) شمالا حيث كانوا يبنون مراكبا واكواخا من القصب يصطادون السمك ويحتفظون بالجواميس والماشية . وتجرى المواصلات بواسطة زوارق قارية ضيقة والناس يعيشون في اكواخ من القصب والحصير وقد استخدمت هذه الابنية في (الالف الرابع ق . م) مبينة بكل تفاصيل باقدم رسوم الابنية المقدسة .

لقد عاش (اهل العبيد) في شمال العراق في طبقات معينة من (تبة كورة) . الا انهم كانوا يسيطرون على الجزء الجنوبي من العراق القديم حيث كانوا اكثر الفلاحين تقدما . كان الطابوق الطيني (اللبن) معروفا لديهم والقار للسقوف وقد جففوا الارض واستصلحوها . وكانت ثقافتهم اولى الثقافات التي انتشرت في (جميع بلاد مابين النهرين) ويبدو ان انتشارها كان من الجنوب محاذيا للنهر . يرى (الدكتور سوسة) بان السومريين جاءوا جنوب العراق في هذه الفترة (٤٠٠٠-٣٠٠٠) ق . م . وقد اوضحنا رأيه في مكان سابق من هذا البحث بعدم معرفة اصلهم وانهم سكنوا شمال العراق ثم نزحوا نحو الجنوب كمهاجرين دخلوا بلاد الرافدين في الشرق والشمال[١٢] وازدهرت حضارتهم في مطلع الالف الثالث ق . م .

لقد قامت العديد من المدن التاريخية المشهورة فوق بقايا قرى من دور العبيد مثل (اور) و (لكش) و (نفر) و (الوركاء) وغيرها بالاضافة الى المواقع الاثرية في شمال العراق[١٧]

ويؤكد (سيتون لويد) بوجود حضارة في جنوب العراق (منطقة الاهوار) قبل ٥٠٠٠ ق . م وهو تاريخ سبق وجود السومريين في العراق كما يؤكد (ليونارد وولي) بوجود سكان في موقع (العبيد) سكنوا بيوتا من القصب في موقعي في منطقة الاهوار (كما بينا سابقا)[٥] وبذلك يكون اهل العبيد قبل السومريين في الجنوب

لقد وجد في (الطبقة ١٢-١٩) في (تبة كورة) (٤٥٠٠ ق . م) آثار لثلاثة معابد كبيرة بنيت باللبن حول ساحة مكشوفة عرضها ٢٠ م مزينة بمختلف الالوان تشرف على ثلاثة جهات . الا انه عثر على مستوطنة بشرية في نفس المرحلة (٥٠٠٠ ق . م) مع مقبرة وعثر في الطبقة ١٩ من (دور العبيد) على اقدم بناية في شمال العراق كانت (معبدا) يحوي ٢٠ غرفة مرتبة حول مزار مركزي .

ان تطور المعتقدات الدينية في هذا الدور طور معه اثر المعبد على المجتمع حيث ان الفترة الواقعة بين (دور العبيد الأول) (٤٩٠٠ ق م) وحتى نهاية (دور جمدت نصر) سميت بدور (سيادة المعبد) . والتي تمثل مرحلة جديدة لنظام اجتماعي جديد (مجتمع القرى الزراعية المتطورة) ومعاير للمرحلة التي اعقبتها والتي تميزت بنمو الملكية الخاصة وظهور مراكز القوى والسلطة السياسية المتمثلة بدويلات المدن السومرية (City States) . لقد وصفت هذه المرحلة بمرحلة التعاون الجماعي باشراف كهنة المعبد التي كان لها الفضل في انجاح مهمة المعبد وتوسيع سيطرته . لقد مرت بناية المعبد خلال تلك الفترة بتطورات عمرانية ابتدأت من غرفة صغيرة في دور العبيد الاول وكانت مربعة الشكل طول ضلعها ٢٫٥ م وقد سميت ساحة المعبد (Cella) وهي اقدس جزء في المعبد يتبعه دكة القرابين[٣٣] . ثم تطورت بناية المعبد فيما بعد الطبقة السادسة عشر من دور العبيد والخامسة عشر حيث اصبحت بناية مستطيلة الشكل بابعاد ٧ × ٤ تتجه زواياها نحو الجهات الاربعة وفي (دور العبيد الثاني) بدت ملامح المعابد ذات المصاطب او بداية ابنية الزقورات والتي اكتملت في مراحل متقدمة من هذا الدور .

لقد كانت معابد الطبقات ١٧ - ١٦ ، ١٥ في (اريدو) اولى المعابد الواضحة في حضارة الرافدين وكانت على بساطتها مميزة عن المنشآت السكنية الاولى لهذا المستوطن والتي كانت في الغالب عبارة عن اكواخ بسيطة . وهو مايعرف باول مستوطن في السهل الرسوبي في جنوب العراق في نهاية الالف الخامس اوبداية الالف الرابع ق . م . يستدل من واقع التنقيبات ان في بداية الاستيطان في هذا المستوطن كانت المنازل بهيئة اكواخ تدرجت فيما بعد الى بيوت بسيطة مشيدة من اللبن[٣٩] .

لقد اوضح روبرت آدمز[١١١] من خلال الدراسات والمسوحات الاثرية التي قام بها في السهل الرسوبي الى انه في نهاية الالف الخامس اوبداية الالف الرابع ق . م . انتشرت قرى زراعية صغيرة في الجزء الجنوبي من هذا السهل واخذت تمتد شمالا باتجاه (الوركاء) واحتل بعض المستوطنات مركزا رئيسا بين مجموعة قرى صغيرة تعتبر مناطق تموين بالنسبة للمركز الرئيسي (اي اقليم ظهير Hinter Land) وقد كانت هذه الظاهرة في منطقة (اور) حيث كانت مناطق ريفية زراعية تحيط بالمستوطن الكبير . فعندما زاد الحجم السكاني اتجهت حركة السكان نحو الشمال وظهر عدد من المراكز الرئيسية المهمة مثل (الوركاء) و (نفر) وأوما وغيرها التي اتسمت بالسعة وبكثافة المناطق الريفية المحاطة بها التي كانت تحت اشراف المعابد المركزية . كما ابرز Adams بأنه في نهاية (دور العبيد) قد ظهرت مستوطنات مكثفة على هيئة مدن صغيرة وقرى زراعية واخرى اصغر حجما واخذت من خلال الادوار المتعاقبة تنظم بعضها الى بعض لتشكل مدنا اكبر تطورت الى دويلات مدن (City States) .

لقد كان النظام الاجتماعي السائد في هذه الفترة هو نظام (مجمع الالهة) ومجالس الشورى التي مثلت التنظيم السياسي والاجتماعي والاقتصادي في

المرحلة التي وصفناها سابقا بمرحلة سيادة المعبد اي ضرورة وجود هيئـــة اجتماعية متفرغة في مؤسسة المعبد تتولى مهام السلطة السياسية.لقد اشار الدكتور بهنام ابو الصوف[١٥] في التنقيب في شمال العراق في موقع تلول الثلاثات قرب مدينة تلعفر عن وجود خندق دفاعي في (دور العبيد) . وكما اشرنـا سابقا .

لقد كشفت مديرية الاثار العامة في جنوب العراق عن بقايا اقدم المعابد في الطبقة السابقة في (اريدو) تعود الى (دور العبيد) كان الزائر للمعبد يرتقي سلماً من ٩ درجات صغيرة .

تعتبر اريدو (ابو شهرين) ٢٥كم جنوب غرب اور احدى خمسة مدن التي حكمت فيها سلالة في ازمان ما قبل الطوفان . لقد عثر فيها على سلسلة متعاقبة من المعابد الصغيرة المشيدة من اللبن تعد معابد اكتشفت لحد الان بأستثناء البناء الذي نوهنا عنه سامراء والذي لم تتأكد ما هيئة كونه معبـدا وقد شيد بعض المعابد فوق مصاطب مرتفعة وقد اعتبرت الاصل الـــذي تطورت عنه ما يسمى بالابراج المدرجة (الزقورة) في حضارة وادي الرافدين .

لقد انتظمت بيوت السكن التي شيدت من اللبن المنتظم كما عثر عـلى نماذج من قرى هذا العصر في (اريدو والعقير) (٥٠ ميل جنوب بغداد) وفي (تبة كورة) قرب الموصل التي تطورت فيها فيما بعد الى مدن كبيرة في العصور التأريخية لم تظهر هذه المساكن اي تمايز طبقي من ناحية أختلاف المساحات للمساكن المختلفة .

ان ظهور المعابد الكثيرة في (دور العبيد) له أهمية حضارية من الناحية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية حيث كانت نواة اولى أنظمة الحكم التي ظهرت في العراق القديم (حكومة العبيد) .

لقد اكتشف في هذا الدور قارب صغير من الفخار في وسطه حفـرة لتثبيت الشراع الامر الذي يشير بوضوح الى تطور المواصلات المائية بالاضافة الى المواصلات البرية . كما عثر في هذا الدور على عدة ادوات مصنوعة من البرونز وغيرها التي تشير الى تطور تصنيع الالة والادوات المرفقة للتقـدم الحضاري .

لقد انقطع السكن العام في (اريدو) من بعد (دور الوركاء) واقتصرت حياة المدينة على جملة بنايات رسمية و معبدية للموظفين ورجال الديـن التابعين للمعابد . وتمتاز معابد اريدو بعمارة متميزة حيث توصف جدرانها بما يسميها بالطلعات والدخلات (Buttress - Recess)[١٨] وهي الخاصية العمارية التي ظلت ملازمة لطراز العمارة في معابد حضارة وادي الرافدين الى اخر عهودها التأريخية .

لقد عثر في هذا الدور على طائفة من الاواني صنعت بنوع خاص من دولاب الخزف (القرص Tournette) اذ لم يستعمـل دولاب الخزاف الصحيح بعد

ان اتساع (القرى) في (دور العبيد) وتقدم بناء السكن وازديـاد استعمال اللبن المنتظم في البناء وكثرة القبور وتعدد دور السكنى تدل على تكاثر سكان هذه القرى .[١٨]

ومما لاشك فيه فان الزراعة في هذا الدور قد (اتسعت) واصبحت بالدرجة الاولى زراعة ري ولا سيما في السهول الرسوبية الوسطي والجنوبية والتي كانت في مقدمة العوامل التي اضطرت الانسان على ضرورة اعـادة تنظيم المجتمع الجديد وظهور المعالم الاولى « لنظام حكم » اكثر تعقيـداً من سابقيه يتماشى مع المتطلبات الاجتماعية والاقتصادية والعمرانيـــة والتكنولوجية التي تميزت في هذه المرحلة بشكل ملحوظ عما سبق مـن مراحـل .

لقد اتضحت بنية القرية لتشمل العديد من الفعاليات مثل المعابد والساحة المفتوحة للسوق والسور ومساكن الكهنة والحكام وطبقات الشعب الاخرى مصفوفة على طرق وازقة متدرجة في السعة والاستقامة والاهمية (بعضها مرصوف بالحجارة) .

ان العمارة المتميزة لهذه المراحل الاربعة هي العمارة الطينية (بالرغم من استخدام محدود للحجر) وقد تميزت بالبساطة مع تقدم مشهود فيما يخص نسق الفضاءات المناسبة للفعاليات المختلفة أضافة لوضوح الاشكال الهندسية المختلفة وقد استخدمت بشكل يدل على التطور الملموس في فـن العمارة والتخطيط سواء على مستوى المسكن او القرية . ان زيادة الكثافـة السكانية الذي فرض توسع القرى وانتشارها بعد تقدم الانسان في مضمار انتاج الغذاء والتجارة والمواصلات والعمارة ، قد ابرز تقدم في فن وعلم التخطيط من حيث مواقع تلك المستوطنات وربطها مع بعض ثم المكونات الداخلية لتلك المستوطنة (كما أشرنا سابقاً) والتي غدت فيما بعد نـواة المدن الجديدة في وادي الرافدين .

ان تطور الزراعة والري وتربية الحيوان صاحبه تطور في الصناعة والتعدين وتعدد الحرف وتخصص المهن والاعمال . ان ذلك التقدم التكنولوجي وتنويع مصادر الدخل قد اضاف الى الحياة الرفاه ووسائل العيش الاكثـر تنظيماً وسهولة فرضت مستوى اعلى من (الادارة المتخصصة) والادارة العامة على المستوى الاجتماعي والاقتصادي والتكنولوجي او على المستوى الوطني (نظام وادارة الحكم) على المستوى الداخلي ثم الخارجي من خلال نظام مواصلات أفضل وتجارة خارجية وتبادل سلع اوسع . كان ذلك كله الاساس والركيزة للقرية ثم المدينة فيما بعد .

٣٩- فؤاد سفر
حفريات اريدو - مجلة سومر - المجلد الخامس - ج ١ ١٩٤٩.